

الصحوة والطه في أمريكا قبل كولومبس أو طب أمريزنيا

رسول على نجح

لتمييز هما من هند آسيا والهنديين الآسيويين ، ولكننا يحق لنا أن نرجع بهذه الحقبة حتى تشمل أواسط القرن السادس عشر أو الثالث الأخير منه ، اي بعد أن بدأت الحضارة الأوروبية تستبدل بالعوائل المحلية ، نتيجة لتعاقب رحلات الفاتحين والمغامرين على هذه البلاد .

غير أن تسمية هذه المرحلة الحضارية بحضارة « قبل كولومبس » ، اذا دلت بمعناها الحرفي على الحقبة السابقة لهذا الحدث التاريخي ، فانها تنطبق في الحقيقة على الثقافة السابقة للثقافتين الأوروبيتين الأمريكية وباسراها ، وبما ان موجات الاستعمار ، والثقافة الذي تبعها ، لم يكن التشارها متساوياً في الزمان والمكان ،

مقدمة

تشمل عبارة « قبل كولومبس » مرحلة طويلة ، يرتد اكبر جزء منها الى ما قبل التاريخ المكتوب ، ويبتدئ عند وصول مهاجرين افغان الورخون على انهم نزحوا الى القارة الأمريكية من آسيا حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، وتنتهي في يوم ١٢ اكتوبر ١٤٩٢ ، عندما ارسى خريستوف كولومبس مراكبه في جزيرة صفيرة من جزر الانتيل وهو يظن انه وصل الى الهند او اليابان ، ومن هنا كانت تسمية هذه الجزائر بالهند الغربية وسكانها الاصلية بالهنود ، ثم تسميتها الحديثة بأمرنديا Amerindia وسكانها بالأمرنديين Amerindians وهما لفظتان منحوتين من (أمريكا) و (الهند) .

واللواء المفاجر ، وتضحيه القرابين البشرية ، والتعذيب الدائى ، والانتحار العقلى بأساليب بشعة ، بل بتاليه الانتحار ، وتعاطى المواد الملهوسة ، وغشيان المحرام ، واقامة التختن مؤسسة اجتماعية رسمية . Bardaje .

ومن ثم ادعوا حق امتلاك اراضيهم ، وممتلكاتهم ، بل واشخاصهم ، والقيام بر رسالة فرضتها عليهم العناية الالهية ، وهى تنوير هؤلاء الوثنين واهداوهم الى الدين المسيحى . ولم يبالوا بالتناقض المنطقى الذى وقعوا فيه اذ بشروا لجماعة قالوا انهم من غير أصحاب العقول .

وقد باشروا هذه الحقوق المزيفة والادعاءات الكاذبة في ظلم وشراسة وهتك ونهب ، كانت نتيجتها ازعاج بعض الافضل من رهيبتي الدومنكان والفرنسيسكان ، فاتصل هؤلاء بالبابا (پول الثالث) — وكان البابا صاحب القول والفصل في اوروبا — فما كان منه الا ان اقر بشرية الامرينيين ، وكان هذا في سنة ١٥٣٧ .

ولكن هذا القرار كان من نتيجته ابطال الحقوق التي كان البابا منحها في سنة ١٤٩٣ الى الناجي الاسپانى ، فوجد البابا نفسه مضطراً الى ايقاف الامرين السالفين لتناقضهما مع القوى المنوحة الى ملك اسبانيا ، وبالتالي اتيح لمجلس الهند مصادرة الامرين البابويين بحججة ضرورة تفحصهما فمنع المجلس توزيعهما في امريكا . غير ان هذه القضية شغلت اسبانيا بأسرارها في القرن السادس عشر ، — وهو عصر اكبر اللاهوتيين الاسبان — وكان بطل الدفاع عن الهند فرانسيسكو دي فيتوريا Francisco de Vitoria الذي اعاد فى كتاباته حقوق البابا والامبراطور الى احتجامهما الصحيحة ، ورفع مركز الامرينيين الروحانى والقانونى .

وقد تدرجت شعوب امريكا من حيث

ولكنها تتبع من القرن الخامس عشر في بعض المناطق الى يومنا هذا في مناطق اخرى ، فان مرحلة « قبل كولومبس » انتهت مبكراً في امريكا الوسطى وفي الشمال الشرقي ، في حين أنها ما تزال قائمة الى الان في اقصى الشمال الغربى والجنوب .

وقد اعتاد الكتاب حصر نظرهم الى امريكا « قبل كولومبس » على دولى المكسيك وشعبها (المايا) و (الاستيكاس) ، وبيرو وشعبها (الاينكا) ، وهم اهم من كرلين حضاريين فيها ، ولكنه غير خاف ان هذه البلاد آوت شعوباً اخرى اعرق قدماً ، لم يتعرف عليها الا منذ عهد قريب ، شعوباً امتدت مستعمراتها من (السكا) في الشمال ، الى (ارض النار) في الجنوب ، ومن المحيط الهادئ غرباً الى المحيط الاطلسي شرقاً ، وقد كيفت هذه الشعوب اسس تراث هذه البلاد الفنى والعلمى .

تمتعت هذه الشعوب بمدنية متقدمة ، وان كانت ناقصة في كثير من مظاهرها ، فقد جهلت استعمال العجلة وحيوانات النقل ، ولم يعرف « الاينكا » الكتابة ، ومع ذلك فقد شيدت هذه الشعوب عمارت شاهقة ، وتنشت نقوشًا وانتجت تحفًا وحلياتاً تثير الاعجاب ، وتقدمت في الحساب ، وكانت لها جداول زمنية مضبوطة وملحوظات فلكية هي غاية في الدقة ، ولكن هذه الحضارة ، التي لم تقل بهاء ولا غنى عن اية حضارة قديمة ، امتازت — بحكم عزلتها التامة عن العالم القديم — بتقالييد فنية فريدة تدعو الى الدهشة والاستغراب ، كما اسميت عقائدها الدينية بالشراسة وبالشفف بسفك الدماء وتقديم القرابين البشرية ، وانختلف مقوماتها عنها في الحضارات المعروفة الاخرى ، الامر الذى هيأ للفاتحين الاسبان تبرير فتحهم ، بدعيى ان « الاميرندي » كائن غير عاقل . وقد بنوا حكمهم على اعتقاد « الهند » اكل اللحوم الادمية ، وممارسة اوان من الشذوذ الجنسي ،

ويمما يكن من أمر هذه الهجرات المتالية ، فإن ولايات أريزونا وتكساس كانت عامرة بالسكان زهاء الألفية الثالثة عشرة قبل الميلاد ، وسكنت أرض النار حوالي الألفية السادسة ، وكان أهم مركزين للتقدم الحضري هما المكسيك وبورو ، وقد تشابه طب هاتين الحضارتين إلى حد كبير ، مع اختلافهما العنصري والزمني .

اما في المكسيك فان احدي اقدم الحضارات التي تعرف عليها المؤرخون هي حضارة الاولمك Olmec - اهل بلاد المطاط - المسماة ايضا بحضارة (La Venta La Venta) التي ترعرعت بين القرن العاشر ق.م. والقرن السادس الميلادي ، وكان ذلك الشعب يشابه في سماته الطبيعية وفي تكوينه الجسم شعوب افريقيا السوداء ، وقد حل بمنخفضات شواطئ بغاز المكسيك ، وكان يبعد نهر أمريكا (الجاجوار Jaguar) .

وكانت المرتفعات الواقعة شمال مدينة مكسيكو مركز شعوب تحكمها الكهنة حكما دينيا Theocratic وصلت الى قمة ازدهارها بين القرنين الرابع والتاسع الميلاديين ، وكان لها اثر بالغ في حضارة بلاد المكسيك كافة ، وبصورة خاصة في تطوير فن الاستيكاس ذي الطابع الهندسى ، وهذه الحضارة هي التي بنت معابد هرمية كانت تقام فيها طقوس الاله تلالوك Tlaloc ، والالمطر الخصب كوتزالوكو Quetzalcoatl المصور على شكل طائر له ريش طائر الQuixepetotec (الله الملون) الله الخصب وانجذاب الذرية .

ثم هناك شعب الزابوتك Zapotek بدين طبعي امتاز بكثرة الآلهة (٩٠٠ ق.م - ١٠٠٠ م) ، وشعب المكستك Mixtek الذي برع في فنون الحرب وصياغة الذهب ، وشعب

نصيبها من التقدم بين بدائية البلاد التي كانت فيما بعد الولايات المتحدة ، وغاية الرفاهة في فن (المايا) في المكسيك وجواتيمالا ، ومع ذلك فاننا نجد في طب مناطق هذه القارة باسها تشابها يدل على وحدة فكرية ، ويسمح بشموله تحت تسمية واحدة . هذا اذا ارتضينا تسمية وسائل العلاج الجارى استخدامها حينذاك طبًا . واننا انما نستعمل هنا هذه التسمية باوسع معانيها اي على اعتبار ان الطب هو مجموع الطرائق التي تستخدم للعلاج ، بغض النظر عن علاقتها بما تعرفه بالطب اليوم ، وعن مدى اختلافه عن السحر والشعودة والعلاج الكهنوتي ، وتلك اسس الطب البدائى ، ذلك ان الطب لم يكن قد انفصل بعد عن الاعتبارات الدينية او الروحانية او الشيطانية التي كانت تكون عموده الفقري ، بل ان هذه الاعتبارات كانت تتدخل في حياة الفرد في كل مرحلة من مراحل حياته ، وبصورة خاصة في فترات الانتقال من مرحلة الى اخرى من حياته ، وكانت ترتبط بنواحي نشاطه كافة ، بما فيها الفن ، وهذه هي الناحية التي امدتنا باهم المراجع في تقويم هذا الطب ، حتى ان دراسة تاريخ الطب أصبحت جزءا لا يتجزأ من علم الآثار .

نبذة تاريخية :

يبدو ان الانسان ظهر في شمال القارة الامريكية قبل عهdena هذا بحوالى ٢٠٠٠ سنة ، قادما من آسيا عن طريق مضيق بربنوج ، من سلالة من الاسكيمو قديمة ، تتنسب الى الصينيين ، حسب رأى بعض العلماء ، او الى السقطيين Scythians حسب رأى البعض الآخر .

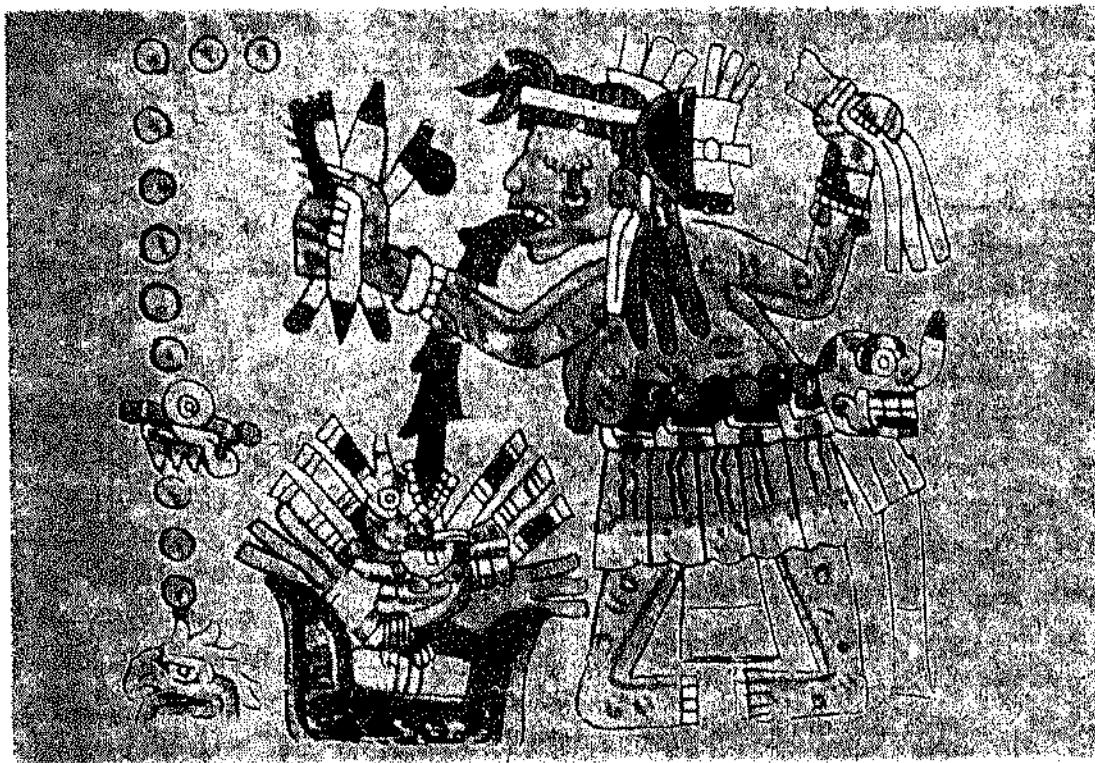
وفي الجنوب قدمت قبائل اخرى من جزر ميلانيزيريا او اندونيزيريا ، ومن المستبعد ان تكون قدمن من جزر بولينيزيريا ، اي في اتجاه على عكس اتجاه رحلة (الكون تيكي) ، اذا ان هذه الجزر ظلت مهجورة حتى سنة ١٠٠٠ ق.م .

ق.م. وظللت حضارتهم في زرکود تام حتى
حوالى سنة ۱۰۰۰ م حين احترزت تقدماً بينما
وتروجع حضارتهم الحجرية الى حوالى ۳۵۰ ق.م
وتكونت امبراطوريتهم بانضمام مدن كثيرة
احتفظ كل منها باستقلالها في اول عهدها ثم
اتحدت . وقد تجلى تباين المناصر التي تكون
منها المايا في عدد اللمحات التي كانوا يتحددون
بها ، وقد بلغ عددها خمس عشرة لمحجة ، اما
نشأة مدنيتهم فأنها ترجع الى تأثيرات من
الاولك ، ومن مدينة تيوتيواكان . وقد قسم
تاريخهم الى ثلاث حقب : الحقبة قبل
الكلاسية التي انتهت حوالى ۲۲۰ م ، والكلاسية
التي امتدت من سنة ۳۲۰ م الى ۹۸۷ م

التلتك Toltec الذي انشأ مدينة تولا (القرن ٨٩٠ م) ، والتوماك Totomac (القرن ٧ الى ١٤ م) الذي ترك في شمال فيراکروز تماثيل خزفية عديدة للالهة سيهواكتشو Cihuatecteo الة السيدات الالئ يمتن في النساء الولادة ، والالئ كن يبنن بذلك اعتباراً يماثل ما يبناله المستشهدون في الميدان .

وأهم حضاراتين بين تلك الحضارات المعدة
كانتا الحضاراتين اللذين امتاز بهما المايا
والاستيكاناس .

وقد وصل الملايين من الشمال حوالي ٣٠٠٠



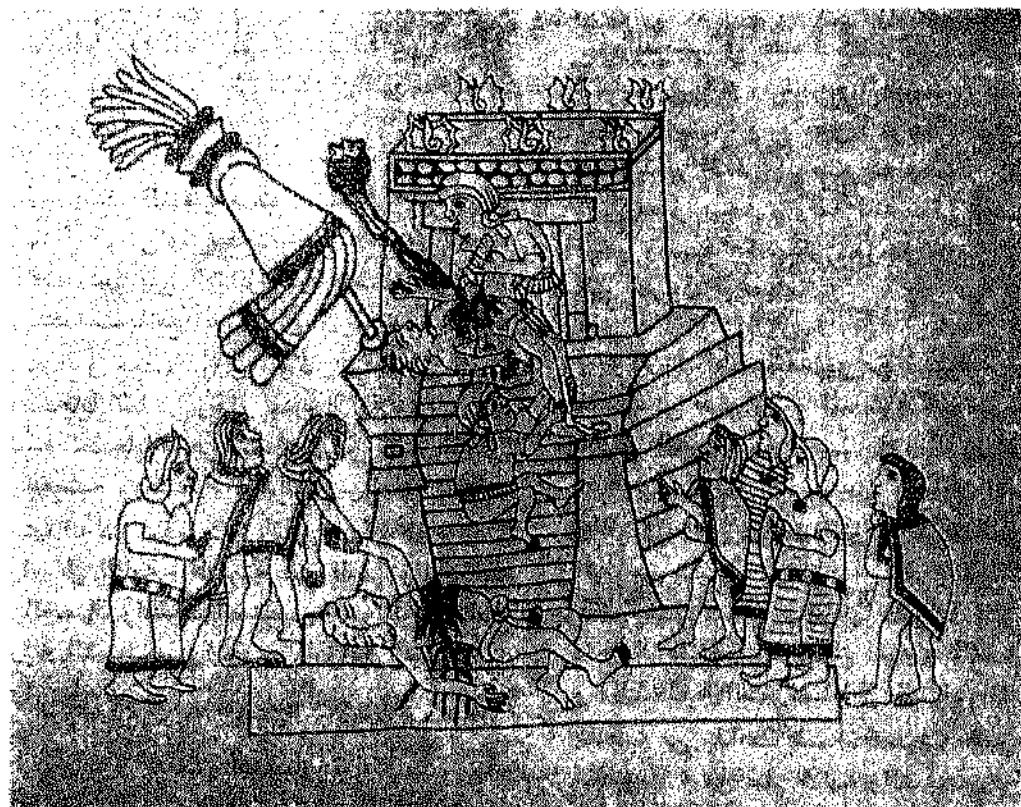
من خير الصور لنظرية الاستيكياس الى الحياة والمرض هذا الرسم الماخوذ من (كودكش الفاتيكان ب) ، للالله (سبيهوا تيوبول أو تلاد تيوبول) ، الالله المرض والفرح ، وقد مثلت في خلال نوبة صرع ، شنتجت قدمها وتقامصنا الى الداخل ، وفاض الدم من فدها لافر طفلاً في مسجده ، وسائل دعمها ، وانتشرت القروح والبثور على جسمها ، وذرت حزماًها بمحممة شربة .

الصور والرسوم التعبيرية، وذلك الخط لم يتوصل العلماء إلى حل رموزه إلا سنة ١٩٦٥ عن طريق الحساب الاحصائي وباستعمال الأجهزة الإلكترونية. ومع هذا الرقي شفعوا بتقديم القرابين البشرية، ومن الفريب أن هذه القرابين كانت ارادية في كثير من الأحوال، لافتقادهم أن الانتحار التقسي (الذى كان يهيمن عليه الإله إكتال Ixtal والذى كان فرعاً على المتصرين في لعبة كرة البلوت، الشعيبة (٢٤) يضمن لهم خير الحياة بعد الموت).

اما حضارة (الاستيكان)، وهي أقصر

وبعد الكلاسية او التولتك Toltec التي عاصرت القرون الستة التالية. وقد اضمحل سلطانهم تحت تأثيرات جوية، وأوبئة متناثلة، وحروب مستمرة، وانتهى عند الفتح الإسباني، اي حوالي سنة ١٤٥٠ م في المكسيك وسنة ١٦٩٧ في جواتيمala.

وقد امتاز المايا بآرقى حضارة في أمريكا، ولها التفوق لقبوا (أفريق العالم الجديد)، وهم الذين بناوا بنايات ضخمة، واخترعوا استعمال الصفر في الحساب - الى جانب هنود آسيا - وبنوا حسابهم على أساس رقم ٢، وابتكروا خطأ هيروغليفيا يستخدم



مثال لتساوة ديانة الاستيكان، منقول من (كودكس ملباكي) ، يمثل تصريحية الاسرى وتقدیمهم قرابين للآلهة . الى أعلى المعبد الهرمي : يشق كاهن صدر أسير حتى ليترعرع منه قلب المايس وينفعه للإله ، وقد ظهر القلب صاعدا نحو الله الشمس . الى أسفل : طاح أسير آخر بعد أن فسخ بالطريقة البشعة ذاتها . وقد روى ان عدد الضحايا في بعض المؤاسم كان يربى على ٢٠,٠٠ أسير ، وكانت الحرب تخاص مجرد الحصول عليهم .

طبقات تفصلها حواجز صلبة ، وبادارة حكومية حاسمة ، وبنوع من الاشتراكية يضمن احتياجات الشعب شريطة ان يسلم الفرد للدولة كل منتجات عمله ، ولقد صاغ الاینكاوس الذهب (الذى سموه « عرق الشمس ») ، والفضة (وكانت في نظرهم « دموع القمر ») ، على انهم تفوقوا في هذا الفن على المكسيكيين وغيرهم من سكان القارة . وشقوا الطرق ، وبنوا القنوات على مسافات مجموعها ٢٠٠ كيلو متر ، ومع ذلك كله فانهم لم يعرفوا الكتابة ولم يستخدموا الحيوانات للنقل ، واتهى ملوكهم سنة ١٥٧٢ الذي مقتل آخر ملوكهم ، توپاك امارو Tupac Amaru على يد الاسпан .

★ ★ *

والعجب في هذه الحضارات أنها تشابهت تشابهاً كبيراً ، وذلك مع الحقب الطويلة الفاصلة بينها ، ومع جهل اکثرها للكتابة ، ومع قلة السفر البحري وصعوبته وضالة الطرق التي تصل بينها . ولذا فانه يمكن وصف طبهم وصفاً يكاد يكون موحداً ، مع الاشارة الى الفروق في حينها .

وكان لها طب متميز عن غيره ، لم يقل فاعلية عن طب اوروبا المعاصرة ، او عن فاعلية خليط الخرافات والعادات الذى ادخله الفاتحون ومدعو التطهير . وبما ان الشعوب والقبائل التى امتهن القارة الأمريكية هجرت اليها من سيبيريا او من نواحى اخرى من آسيا ، فقد جلبت معها مميزاتها المغولية التي نرى آثارها الطبية فيما يطلق عليه « الشمانية » و « الطوطمية » اللتان نشأتا في آسيا ، والشمانية مذهب من مذاهب شمال آسيا ، يؤمن بعالم محظوظ ، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف ، الذى لا يستجيب الا للساحر الكاهن (الشمان) ، أما الطوطمية فهى الایمان بوجود صلة خفية بين جماعة وبين « طوطم » ما ، وبين يمثله . وقد يكون نباتاً او حيواناً ، يتخد رمزاً وعلمأً للأسرة والمشيرة .

الحضارات مدة واقربها الى عصرنا هذا – فقد بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي ، عندما هاجر (التولتك) الى شبه جزيرة يوكاتان ، وهي لم تمت باية خصائص مميزة قبل اقتبست الكثير من المايا ، ثم ابتعت وتقعصت كل الحضارات الاخرى بفضل قوة نظامها الكهنوتي والعسكري . ولم تكن لهذا الشعب كتابة ، وان كان قد استعمل طائفة من الرموز المchorة بعض الكتابات المقدسة . وهذا الشعب هو الذى انشأ مدينة مكسيكو (وأصل اسمها Tenochtitlan) في ارض وجد فيها كهانه نمراً (وهو رمز السماء والحياة العاملة الإيجابية) يلتهم ثعباناً (وهو رمز الأرض والموت) ، وما تزال صورة النسر الملتئم للشعب رمزاً و « رنكا » للمكسيك . وقد بلغ هذا القوم ذروة مجده بين ١٤٢٥ و ١٥٠٠ م ، ثم استولى الاسпан على ملكه في سنة ١٥١٩ م .

كان هذا الشعب شعباً عسكرياً ، يؤمن بأن الحرب فرض ديني غايته جمع الاسرى الاحياء لتضحيتهم على الهياكل بفية ضمان بعثه ، وذلك تمثياً مع المبدأ القائل بان الموت يستخلف الحياة في تجدد دورى ، وكان يعتقد ان قلوب الضحايا انما هي زهور تقدم للآلهة ، وان دماء هذه الضحايا ما هي الا ماء نقيس يغلى الخلق ويخصبه ويجدده ، وكذلك آمن بالآلهة عدة ، منها آله ذو شقين ذكر وانثى ، والآله الذكورة ، وام كل الآلهة ، المهيمنة على القمر والولادات والحساب والملادات الجنسية ، والآلهة الموت ، والآله الشمس المحب للقرايين البشرية ، وغيرها .

وفي بيرو تعددت الحضارات ولكنها وقعت كلها في القرن الخامس عشر الميلادي تحت سيطرة الاینكاوس Incas . وقد ازدهرت بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين ، اي أنها عاصرت حضارة الاستيكاس في المكسيك . وتتميز دستورها بتقسيم القوم الى

في عهد الفراعنة وفي العهود المقابلة لها أو السابقة لها في مصر أو العراق.

ثم أن الموجود في الماحف والمجموعات الشخصية من التماثيل وأواني الخزف كثير جداً . وهى تبين بعض الأمراض والتشوهات الخارجية ، ولكنها بطيئتها صامتة عن الأمراض الداخلية . كما أنه يدخل فيها وفي الرسوم - شأنها شأن كل انتاج فني - عامل خاص بالفنان ويميله ، وبالرمزيّة الدينية أو الطقسية الشائعة . وإلى هذا تبقى المخطوطات وما يزينها من الرسوم . وقيمة تلك الاتقدر بشمن وان لم تكن واحدة منها « طبية » بالمعنى العلمي . غير أنها ، مع ذلك ، تحوى في ثناياها معلومات طرífقة عن طبائع الهند وآمراضهم وعلاجها . أما تلك التي سبقت كتابتها تاريخ الفتح الإسباني فان عددها قليل جداً بسبب تعصب الطفاة الإسبانيين ، وأصرارهم على إبادة كل هذه المستندات لحكمهم عليها بأنها شيطانية ووثنية . ولذا فان جل المخطوطات الموجودة اليوم لاحقة للفتح ، وبذلك لا تلقى الا ضوءاً غير مباشر على الأحداث التي ترويها .

واحد المخطوطات التي سبقت الفتح :
 (كودكس درسدن Codex Dresdensis)
 الذي يرجع إلى ما قبل القرن الحادى عشر ، موجود بفينينا ويحوى دراسات فلكية ، والثانى (Codex Tro— Cortesianus) ، الموجود في المتحف الأمريكية بمدريد ، يجمع طائفه من الطلائع الفلكية ، والثالث (كودكس بيريز طقوس مستوحاة من التقويمات اليومية (روزنامة) .

ومؤلفو هذه النسخات ، بعضهم من الهند الذين افتقدوا المسيحية وارتضوا تقديم تاريخهم وأساطيرهم وعواوالم القديمة على شكل يرضى حكامهم الطفاة ويتمنى ودينهم الجديد ، وقد الفوا باللغة المحية ، وزودوا

المراجع :

المراجع التي يعتمد عليها في دراسة طب الأمريكان كثيرة ، ولكنها جميعها مراجع جزئية لا ترضي فضولنا تماماً عند البحث عن الأمراض التي كانت هذه الشعوب تشكو منها ، أو عن وسائل العلاج التي كانت تتبعها ، ذلك لأن المتن الطبيّة المحسنة تقاد تكون معدومة ، واذن فعلينا ان للجأ إلى الاستنتاجات المستنبطة من التحف الفنية ، أو من التاريخ العامة التي لا تربى قيمتها على قيمة كل التفسيرات البشرية ، لأنها تتلوّن ، ضرورة ، بأمتيازات تسود الى شخصية المفسر ، أو الى نزعة الفنان أو المؤرخ ، أو الى الأفكار الشائعة عند ظهورها .

وإذا أضفنا الى هذا أن أرض أمريكا ما تزال تكتنّ آثاراً وكتابات لم يكشف عنها إلى اليوم ، تختتم قبول هذه الاستنتاجات بكثير من التحفظ ، غير أن حكمنا عليها يصح - انصافاً لها - أن يبني على المقارنة بالأحوال في أوروبا ومن الفتح الإسباني ، وهو الزمن الذي احرق فيه (سر نتوس) Scroetus حياً لانه وصف دورة الدم ، والذي كان فرنل Fernel يميز فيه بين خواص زبل الحمام والدجاج والماعز وغيرها ، وكان باراسيلسوس Paracelsus يجد نفسه مرغماً على احراق كتب جالينوس في الميدان العامة ليحرر الطب من الجبال التي كبله بها ذلك العالم الاغريقى مدة الف وستمائة سنة .

واهـم حـيثـيات هـذا حـكـمـ سـنـسـتمـدـها ، كـالـعـتـادـ ، مـنـ الـبـقـاياـ الـبـشـرـيةـ ، وـمـنـ الصـورـ ، وـالـأـثـارـ ، وـمـنـ الـمـخـطـوـطـاتـ الـمـعاـصـرـةـ ، وـسـنـوـفـ ، كـلـاـًـ مـنـهـاـ حـقـهاـ عـنـ مـنـاقـشـةـ الـأـمـرـاـضـ الـمـخـلـفـةـ ، غـيرـ أـنـهـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـلـاحـظـ أـنـ الـبـقـاياـ الـجـشـمـانـيةـ قـلـيـلـةـ فـيـ الـمـكـسيـكـ لـاعـتـيـادـ الـمـكـسيـكـيـنـ اـحـرـاقـ الـجـثـثـ أـوـ دـفـنـهـاـ دـوـنـ تـحـنيـطـ ، وـلـهـذـاـ السـبـبـ فـانـ مـعـرـفـتـنـاـ لـلـبـقـاياـ الـبـشـرـيـةـ ، وـالـأـمـرـاـضـ وـالـتـشـوـهـاتـ الـشـائـعـةـ ، لـاـ تـقـارـنـ بـمـعـرـفـتـنـاـ لـهـاـ .

ومن أهم الكتب المتأخرة - وعدها ضخم - الثلاثة التي أشرنا إليها فيما سبق ، والتي وضع أحدهما فيليب هوامان پوما دي آيلا Felipe Huaman Poma De Ayala أباطرة الإينكاوس ، لتمجيد ماضي شعبه . وقد نسّى المؤلف زماناً غير قصير ثم كشف عنه بالكتبة الملكية بكونيماجن في سنة ١٩٠٨ ، ونشر سنة ١٩٣٩ (١) ، ووضع ثانيةاً Garcilaso Inca De La Vega إنكا دي لا فيجا المولود ، والمنتسب إلى سلالة ملكية هندية من طريق والدته ، ووضع ثالثها الراهب بارنابي دي كوبو Barnabe de Cobo الذي ألف تاريخاً للعالم الجديد يتصنف بالواقعية ، انتهى من كتابته في سنة ١٩٥٣ (٢) .

وقد أخذ عدد الدراسات التي تناولت طب هذه المناطق يزداد يوماً بعد يوم . ويستطيع القارئ الاطلاع على كشوف مفصلة لهذه المراجع في مقالات جوييرا Guerra (٣) و(٤) ، شادفالدت Schadewaldt (٥) ، فرنسيسكو فلورس Francisco Flores (٦) ، الذي راجع تاريخ طب

هذه المصنفات بتعليقات تفسيرية ، أو بترجمات لاتينية أو إسبانية .

ولكن أغلبية هذه النصوص من تأليف الأوروبيين الذين عاشوا في هذه البلاد ، سواء كانوا موظفين إداريين أم عسكريين أم رهباناً أم زواراً ، ويغلب في هذه النصوص الاهتمام باللاحظات الطريفة أو العوائد الغريبة لتسويق القارئ أو لتبسيير الفتح عن طريق السخرية من سكان أهل القراءة الأصائل والظهورهم بمظهر الوثنيين التخلفين غير الجديرين بالاستقلال ، أما الذين حاولوا انصاف السكان الأصائل ، أو تجاسروا على امتداحهم بعد أن دققوا البحث والاطلاع - أما عن محنة للبحث العلمي المحقق ، ومن هؤلاء ، في المكسيك ، الراهب برناردينو دي ساهاجون Bernardino De Sahagun الذي أعيد نشر مؤلفاته أخيراً (٧) . وفي بيرو الراهب بارتولومي دي لاس كازاس Fray Bartolome de Las Casas الذي استحق لقبه سكان هذه البلاد ، أن يطلق عليه ملك إسبانيا لقب « حامي جميع الهند » ولم ينشر مؤلفه إلا في سنة ١٨٧٥ (٨) .

Sahagun, Fray Bernardino de, Historia General de las Cosas de Nueva Espana, (١)
Maxico, 1829—1830; Pedro Robredo ed., Maxico, 1938

Las Casas, Bartolomé de, Historia General de las Indias, 1561; ed. Marques de la Fuensanta, Madrid, 1876 (٢)

Poma de Ayala, F.H., Nueva Cronica y Buen Gobierno, 1613, ed. Inst d. Ethnolog., Univ. de Paris., 1963 (٣)

Cobo, Fray Barnabe, Historia del Nuevo Mundo. M.J. de la Espana, Seville, 1890-1893 (٤)

Guerra, F., La bibliografia de la Historia de la medicina mexicana, 1949, Prensa Medica Mexicana, 14, 87—93 (٥)

IBID., Maya Medicine, 1964, Medical History, 8, 1, 31-44. (٦)

IBID., Aztec Medicine, 1966, Meical History, 10, 4, 315-338 (٧)

Schadewaldt, H., Altmexicanische Heilkunde, 1962, Medizinische Welt, 14 1454-1464 (٨)

هذين الاتجاهين ، سبب نشأتهم في ذهن واحد ، تسايرا ، واختلطوا وان ظل كل منهما مستقلاً عن الآخر إلى حد كبير أو صغير .

وام يختلف الطب (الأمرندي) عن غيره في العالم . غير أن نصيب كل من النزعتين ، ودرجة تقدم كل منها على الأخرى ، وما حازت كل منها من الركود أو التطور ، اختلف عند كل شعب حسب نظرته إلى الحياة . وقد أفرغت النزعية السبيبة عند أوائل وعي الإنسان - لدورها - إلى نوعين من التفسيرات : هما التفسير السحرى والتفسير الالهى ، وقد غلب أولئك في (بيرد) ، وكان للثانية القبلة في المكسيك .

ويختلف السحر عن الدين اختلافاً تاماً ، وإن كان الكثيرون من العلماء يرون أن الدين انحدر عن السحر : فالسحر يؤمن بوجود قوى خفية مستقلة ، غير مرتبطة بشخص أو بمادة ، هي التي تنظم العالم ، وإن هذه القوى يمكن إسرها ثم احلالها في جسد الغير ، وبصفة عامة تسخيرها لأغراض الساحر عن طريق وسائل معينة . وللسحر منطق خاص به ، يستقرىء المثل بالمثل من القىاس السطحي ، ويرى روابط بين المسميات والاسماء ، وبين الأجسام المشابهة ، ويؤمن بخواص الأرقام والمحروف وبقوه الألفاظ والأصوات والاسماء ، وباحتمالية تتابع الأحداث إذا حدث أن تتابعت مرة ، وبإمكان الحق الأذى في شخص إذا فعل هذا بنموذج يشابهه ، وما إلى هذا من فروض مبنية على سبية وهمية .

المكسيك حتى سنة ١٨٨٨ (٩) ، ومارتينيز دوران Martinez Duran الذي تخصص في تاريخ جوانيمالا (١٠) ، وشارل خوري (١١) ، وشتورنثافت (١٢) .

النشاة : إننا ، إذ نتأمل في طب هذا العهد ، إنما نشاهد نشأة الطب بصفة عامة ، كانه يوقف في أول أطواره ، وركد فرونا ليسمع لنا بهذه النظرة الشائقة إلى أوائله .

نشأ الطب مع الإنسان ، وقد كان له دائماً وجهان : وجه إنساني بحت ، ناجم عن حب الوالدين لطفلهما التام ، وشفقة عضو المجتمع على أخيه ، واهتمام القائد بجنوده ؛ ووجه آخر ، ناجم عن فضول الإنسان وحياته أمام أسرار الكون ، وعن نزعته السبية التي طالما حفزته إلى البحث عن سبب لكل مسبب ، وقد ظل هذا الفضول أقوى دافع للتقدم ، فقد دفع إلى تخمين تفسيرات ، اختلفت جانبها من الصحة ، فاحتفظ بها مبتكروها إذا تحققت تكهنتها - واستبدلوا بها غيرها إذا تناقضت نتائجها والواقع ، فكان تعاقب التخمينات ، وتحسينها التدريجي مهما تكون من البدائية ، بداية تهيجي الفلسفه للعلم ، وأول قواعد انطلقت منها المعرفة .

ويقابل هاتين النزعتين اتجاهان مختلفان في العلاج : أحدهما عمل تجريبي يرمي إلى تخفيف المارض وتسكين الألم وتخفيفه ، وهو ما نسميه بالعلاج العرضي . والثانية عقلي ، يرمي إلى معرفة الأسباب الأولى لازالتها ، ولكن

Flores, F., Historia de la Medicina en Mexico des de la epoca de los Indios hasta la presente, Secretaria de Fomento, ed. Mexico, 1886—1888 (١)

Martinez-Duran, c., Las ciencias medicas en Guatemala, 3rd, ed., Ed., Ed. Universitaria, Guatemala, 1964. (١٠)

Coury, C., La Medecine de l'Amerique pre-colombienne, ed. R. Dacosta, Paris, 1969 (١١)

Sturtevant, W.C., Bibliography on American Indian Medicine and Health, Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology, 1962 (١٢)

بين قومه خضع اختباره لقواعد دقيقة ، فلا بد أن يكون من سلالة ساحر عظيم ، أو أن تقتربن أفلان مواتية ساعة ميلاده ، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه ، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدسة المزعومة كالصرع أو الهستيريا ، أو بتشویهات معينة ، أو أن تكون امتحونة قد وقعت له في حياته الخ .. وما يزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات في انتخاب المتمم ، كما تراعيها الشعوب البدائية في اختيار سحرتها .

وليس ثمة شك في أن الساحر كان ينربى تربية خاصة تقوى ملائكته ، وتلهب حواسه وتزيد من عقيدته بأنه امتاز عن الآخرين ، هذا بالإضافة إلى وسائل الخداع التي كان يمارسها . ومن أمثلة هذا ما شاهدته « روث بندكت » بين هنود شمال غرب أمريكا ، فقد روت أنها رأت ساحراً يضع قطعة من القطن داخل فمه بين اللثة والخد ، ويتنفس من فم الملا ليبرهن على خلو فيه ، ثم يypress ثم يمتص محل المرض أو الألم ، وفي آخر تمثيليته يستخرج من فمه لفافة القطن وقد امترجت بالألعاب والدم وأصبحت أشبه بالمدودة ويدعى أنه استقضى المرض باستئصال الدودة المسيبة له (١٤) .

ولنعد إلى الطب أو بعبارة أدق إلى التطبيب ، عند هنود أمريكا .

لقد كان للطب التجاربي عندهم حقل محدود جداً ، وهو حقل الحالات المرضية ذات الأسباب الخارجية الظاهرة كالجرح و .. مع قدر من الملاحظات عن تأثير بعض النباتات أو العوامل الطبيعية ، وقد كانت الفرما كويينا (الأمرنديه) ، التي وردتنا منها الكثير

أما الطب اللاهوتي أو الكهنوتي فإنه يختلف عن الطب السحرى في الجوهر وإن كان يشابهه في الشكل ، ولا يتميز عنه أحياناً . ذلك أن السحر يدعى سلطاناً مباشراً علىقوى الفعالة التي يفرضها ، ويأمرها بأداء المطلوب منها ، ويسيطرها لأغراضه ، في حين أن الطب اللاهوتي يتسلل إلى الإله طالباً تدخله في الأمر المطلوب (١٢) .

وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بين الدين والسحر . فقال البعض إن الدين هو العقيدة والسحر هو الطقس . إلا أن ديناً لا يرسم لعتقديه خط السير في الحياة لا يسمى ديناً ، ولا يزيد عن كونه نظرية فلسفية . وقال البعض الآخر أن أساس الأديان هو قبول سلطان الإله ثم مساومتها بقبول التقىـد بالفروض الخلقيـة وواجبات العبادة ثمناً لما يطلب منهم من حماية ورعاية ، وهذا أقرب إلى الحقيقة والعقل .

وبالتالي فإن وسائل الطب اللاهوتي انحدرت صورة مختلفة عن وسائل السحر ، إذ أنها نبعـت من الفكرة بأن المرض إنما هو عقاب الإله للانسان لخطـيـة ارتكـبـها ، وأذنـ فـانـهـ يـتحـمـلـ الـبـحـثـ عـنـ هـذـهـ الـخـطـيـةـ ، أو فـرـضـ وـجـودـهـ ، ثـمـ الـاتـجـاءـ إـلـىـ الـإـلـهـ لـرـفـعـ الـعـقـابـ ، أو التـوـسـلـ إـلـىـ إـلـهـ أـقـوىـ لـتـنـفـلـ بـعـلـىـ إـلـهـ الـمـؤـذـىـ ، وهـذـاـ بـالـصـلـوـاتـ وـالـتـرـتـيـلـاتـ وـتـقـدـيمـ الـبـخـورـ وـالـقـرـاءـيـنـ وبالـطـقـوسـ الـتـىـ كـانـ يـفـرـضـهـ كـلـ دـينـ .

غير أن شخصية سادن السحر أو الكاهن كان لها أكبر اثر في هذه الطرائق العلاجية . وهذا ما نراه إلى اليوم في حلقات العلاج التي تخرج عن الطب العلمي ، كالعلاج الروحاني أو العلاج المعنطيـسيـ الخ .. ولخطورة الساحر

(١٢) بول غلينجـيـ ، طـبـ وـسـحـرـ ، الـادـارـةـ الـعـامـةـ لـلـقـاـفـةـ ، وزـارـةـ الـاـرـشـادـ الـقـومـيـ الـقـاـفـةـ ، الـكـتابـ الـخـامـسـ .

Benedict, R., Patterns of Culture, 1960, Mentor Books, The New American Library, New York, p. 187. (١٤)

من شك في أن الأول ، ولا سيما الثاني من تلك العناصر الثلاثة ، سسيطرًا على الثالث ، فقد كان إلـ (تيسيل) (رجلًا كان أو امرأة) ساحراً قبل أن يكون طبيباً ، غير أنه كان ساحراً خيراً ، مقبولًا ، ومحتملاً عليه في مجتمع كان يستنكر السحر «الأسود» أى الذي يبتلي العاق الأذى بالعذاب .

وقد زاد بارون لا هونتان ، في ستة ١٦٨٥ ، هنود منطقة كيبك - الذين لم تختلف عاداتهم عن عادات الهنود الآخر - ووصف الطبيب الساحر فقال «إنه نوع من الأطباء ، أو بعبارة أصح من المشعوذين» ، وسبق أن شئني من مرض خطير ، فوصل به الجنون إلى حد الظن بأنه أبدي ، وأنه يملك قوى تمكنه من شفاء كل الأمراض بمخاطبة الأرواح ، طيبة كانت أو شريرة . ومع أن الجميع يهرا بهؤلاء المشعوذين في غيابهم ، ويراهم على أنهم مجاني ضاع رشدهم نتيجة للمرض ، مع ذلك يسمع لهم بالاقتراب من المرض .. يحضر هذا المجال فتحفص المريض بدقة ويقول : «إن كانت الروح الشريرة هنا ، فاني سوف ارغماها على الإفلاع بسرعة» .. ثم ينبعز في خيمة صغيرة اقيمت لهذا الغرض ، حيث يفني ديرقص ويصبح كالدب التوحش . ثم يأتي إلى المريض ويمتص جزءاً من جسده ، ويستخرج بعض المظمام من فمه ، مؤكداً للمريض أنه إنما أخرجها من جسمه ، وإن مرضه بسيط ، وبهيب به أن يرسل عبيده وخدمه لاصطياد الفزان ليأكل من لحومها التي لا غنى عنها للشفاء . ثم يقدم للمريض - بالإضافة إلى هذا - عصير بعض النباتات الملينة ، غير أن المرض درجوا على الاحتفاظ بها ، مجاملة ، دون تعاطيها» . وهذه النبذة الأخيرة تعبّر عن تشكيك المرض الأزلي في الوصفات الطبية (١٥) .

من العقاقير المقيدة ، نتيجة ملاحظات تعاقبت على مدى قرون . وكان للمريض الخيار بين الطب السحرى - الذي كان يمارسه عند الآيتكاس (إيشوري Ichuri) ، وبين الطب التجربى الذى يمارسه (سانكويوك Sancoyoc) ، شأنه شأن المريض المصرى في عهد الفراعنة الذى كان له أن يختار بين الكاهن (وعابو) والطبيب العلمانى (سونو) ، أو شأن المريض البابللى الذى كان له أن يتوجه إلى إلـ (أسيبتو) أو إلى إلـ (أسوتو) ، أو المريض الصيني إلى إلـ (وو) أو إلى إلـ (بي)، كل حسب ميوله الخاصة أو حسب طبيعة مرضه . وكان الخيار نفسه للمكسيكى بين إلـ (سيكوالنس) أو إلـ (أهمن) أو إلـ (تيسيل) وهو الطبيب العلمانى ، إلا أن أكثر اللجوء كان للساحر أو الكاهن وليس الطبيب ، لأن الأول والثانى كانا يتناولان الأمراض الداخلية التى كانت أسبابها خفية والتى - قياساً على الأمراض الناتجة من تأثيرات خارجية ، كانت تسب إلى قسوة الامادية ، غير مرئية ، تنتهي إلى عالم ما وراء الطبيعة ، أو إلى الأرواح ، والجنس ، أو القوى الكونية .

وبما أن المرض فسر على أنه ناجم عن وجود عنصر غريب في الجسم مستقل عنه ، فإن الأعراض كانت ، في نظرهم ، مظاهر ثانوية لهذا الوجود الذى حل بجسم المريض أو امتلكه . وأذن فالتأغلب على هذا الكيان الخفى الذى كون المرض لم يكن متاحاً إلا بنع禄 طرق الوصول إليه أو وسائل التأثير عليه ، وقد قال «سوستل» في هذا الصدد :

تبعدو أفكار المكسيكيين القدامي وعاداتهم الخاصة بالمرض والطب ، مركبة لا ينفصل من الديانة والسحر والعلم ... ولكن ، ليس ثمة

يرسم - مثلاً في (كودكس بورجيا) - مصاباً
بألام مغوية وبولية وقيء دم وأسهال وعدم
القدرة على احتباس الفضلات (١٧) ، وهذه
النظرة لم تشمل كل الأمراض بل استثنى
البعض منها ، ولا سيما العاهات ، التي لم
تعد عقاباً ، بل كانت - على العكس - علامات
تنبيئ بمميزات قدسية أو بمواهب طيبة .

وكان اكثريه الالهه تلعب دوراً طبياً ، وكان في مقدورها الحاق المرض أو الإبراء منه على السواء ، أما عدد تلك الاللهه في المكسيك فانه فاق بكثير عددها في بيرو ، حيث كانت هذه القوى مركزه في اثنين من الاللهه : پاشاماک Pachamaca و فيراوكشا Viracocha (المسافر الخير الذي يهب الشفاء) ، هذا بالإضافة الى جمهرة من الجن ومن قوى خفية مرتبطة ببعض المناطق او بعض الاشياء التي كانت موضع عبادة خاصة .

اما عند (المايا) فان الله الـطب الاول كان اثرا مـنا Itzamna (الـاـله الـاحـول) مـخـترـع الكتابة ، وابن هوناب (الـاـله الـخـالق) ، وكانت زوجته تسيطر على نمو النباتات الشافية ، وكان لدى المايا الله للـموت والـاوـيـثـة ، والله هو « سيد الـاطـبـاء التـسـعـة » ، والله للـمـيـاء .. الغـرـب ..

ونسب الاستيکاس اختراع الطب الى
كويترالقوائل Quetzalcoatl الله المعرفة
والخير ، وكانوا يقدسون (توسي) الله التكهن ،
ويضحون لها شابة تحمل اسمها . اما الله
المطر فانه كان مسؤولاً عن الاستسقاء ، وعن
الروماتزم والتقرس والشلل ، وكل الامراض
النسمية الى اضطرابات الجو او الهواء ،
والقرح ، وامراض الجلد ، والادمان على شرب

اما النزعة الكهنوتية التي سادت المجتمعات
التي يسيطر عليها رجال الدين فنقتبس في
وصفها ما قاله كونتنو Contenau عن طب
بابل وهو ينطبق تماماً على هذا النوع من
العلاج في كل مكان وكل زمان — قال : « ان
الله هو السيد الحقيقي للانسان ولكل ما
حققه ، ويلحق المرض بمن يشاء ، وهو الذى
يرجع اليه لاخماد حنقه ، والشفقة في يد
وزرائه وخدمه . . . ولذا يكون من الطبيعي ان
ينتمي الطبيب الى فئة الكهنة ، هذا الى ان
هذه الفئة هي الوحيدة التي كانت على جانب
من العلم » (١١) .

ولذا فانه ، ازاء هذه النظرة الى المرض ،
يصبح البحث عن مقر المرض ، او عن نوعه
من التفاهة بمكان ، اذا قورن بضرورة التتحقق
من الشيطان المؤذى او من الاله الضار ،
ويتحول التشخيص الى دراسة للأساطير ،
ترمى الى الكشف عن القوى الكامنة وراء
المرض ، والى سبب حلولها بالمريض ، والى
الطرائق التي توصلت بها الى غرضها .

وقد كان الامريكيون قبل كولومبيا ينظرون الى المرض ، بصفة عامة ، على انه عقاب . فكان أول ما يفعله الطبيب ان يسأل : « هل ارتكبت خطيئة ؟ وهذا قبل ان يسأل : اين الالم ؟ » ، أما اذا كان المريض لا يذكر الخطيئة التي ارتكبها فعنده يقع على عاتق الطبيب اكتشافها .

وكان المريض المصاب بداء الهي يسمى في
لغة الإينكاس والاستيكاس - نتيجة لهذه
النظرة المزدوجة اليه - منتسباً لهوبلتزلى
، آى آكل السروث ، وكان Netspalhuiliztli

Contenau, G., La médecine en Assyrie et Babylonie, Maloine, Paris, 1938.

(17)

Ebrle, R.P., Il manoscritto messicano Borgiano, ed. Danesi, Rome, 1898

(iv)

الروح) ، ويعتقد ياركو (١٨) أن تفسير المرض هذا كان أقدم التفسيرات التي اخذ بها الأمرنديون .

اما تسرب جسم دخيل ، فكان اكثر التفسيرات شيوعا ، ومفاده امتلاك الجسم او الكائن الدخيل لجسد المريض .

والتفسير الثالث ، اي وجود رياح ضارة او نفوذ جو مؤذ ، كان يؤودى عند المكسيكيين معنى وجود تأثيرات مضرية غير مرئية تحوم حول الانسان في بعض الايام ، او بعض الاجواء ، ولا سيما في اثناء الليل ، وهذا التفسير يقارب بعض نظريات المصريين القدماء - الذين وصفوا في الجزء السحرى من بردية ادوين سميث (١٩) ريح الكاهن ، او ريح اليت او ريح طاغون السنة - وهذا هو الذي ادى الى تسمية مرض الملازما من لفظي Mal و Aria اي الهواء الرديء . وقد تكون العلاقة الملاحظة بين بعض الامراض وبين انتشار البعض او ارتفاع درجة الرطوبة قد أدت الى هذه النظرية .

اما التشخيص في حد ذاته فان الطريقة المفضلة للوصول اليه كانت استطلاع البوادر او عمليات التكهن بواسائل شتى تتطلب معرفة لمبادلها لا يجيدها الا الكهنة والسحراء . ومن تلك الوسائل ان سكان بيرو كانوا يتلقون سلوك الحيوانات ، او الرسوم التي ترسمها اوراق شجرة الكوكا المتساقطة على الأرض ، وكان المكسيكيون يلاحظون الاشکال التي ترسمها بذور اللوزة اذا نثرت على قطعة من النسيج الایض ، او اذا سقطت في اماء من الماء ، وكان سقوطها الى اسفل الاناء يمد طالع

الخمر ، وكانت لهم الة خاصة بالجسر وبأمراض العيون ، واله لامراض الاطفال كان يعالج مرضاه في معبدہ باعطائهم شراباً اسود اللون ، وثمة اله آخر للعاهات والتواهم ، واله ذو قوى منومة وتكلمية للأمراض المعدية ، أما اله الموسيقى فكان مستولاً عن الأمراض الجنسية التي تحل بالرجال والنساء اذا اقترفوا محرمات جنسية ، الخ .. وخلاصة القول ان الاستيکاس كانوا يختصون بكل نوع من انواع المرض الها قالما بداته .

اما عند الهندوسيين الحمر ، فكانت السلطة العليا في يد (الشمس الكبيرة) او (الروح الكبيرة) وكان المرض يعزى ايضا الى حيوانات اسطورية ، او انسان مؤذ ، او ميت غير راض .

النظريات المرضية وفن التشخيص :

ان اول خطوة في العلاج هي التشخيص ، وكانت هذه الخطوة كما رأينا تتلخص في التتحقق من القوى الخفية التي سببته ، ومن الطريق التي اتخذتها لتحقيقه ، ولبس من نوع المرض او مقره .

اما طريق نشأة المرض بسبب هذه القوى ، فانها كانت تتلخص في واحدة من طرق ثلاث هي : ضياع الروح ، او دخول جسم اجنبي غير موئي ، او نفوذ جوي .

والروح كان يطلق عليها لفظة « Tonalli » التي تعنى الروح الحيوية ، او قدر الانسان وقضاءه ، او نجمته ، وكانت القوى الشيرية تستطيع انتزاعها من الفرد ، كما ان الساحر كان يستطيع اعادتها بوساطة آلة جوفاء من العظام المزخرف تسمى (آسرة

Jarcho, S., Some observations on disease in prehistoric North America, 1964,
Bull. Hist. of Med., 38, 1, 1—19.

(١٨)

The Edwin Smith Papyrus, ed. J.H. Breasted, 1930, The Chicago Univ. Press

(١٩)

في حالة توتر و هياج و هلوسة ، وقد افترضوا انها ، بهذا ، تنبه ملوك الكاهن المزعومة ترهف حواسه وتزيد من حساسيتها ، ولذا لجأوا الى نباتات عدة كالبيوتل الذي يحوى مواد مهلوسة ، والى التبغ والخمور التي كانوا يتعاطونها شريراً او من طريق الحقن الشرجية ، هذا مع فرع الطبول والرقص والحرس كات المستيرية التي كانت تخيل الى مشاهديها ان روحها حلت بشخص الطبيب او المريض .

العلاج : وكان قوام ذلك العلاج خليطاً من الخبرة ، ومن الاعتبارات الروحانية ، او شيئاً وسطياً بينها ، وهذا كله بعيد كل البعد عن نطاق العقل ، ولكنه مبني بناء منطقياً سليماً على بعض المبادئ والخدمات الرائفة التي يمكن حصرها على الوجه الآتي :

١ - عدم التمييز بين الفرد والمحيط ، والتخيل ان الانسان مجرد عضو من جسم كوني شامل هو - كالجسم الادمى - متضامن الانضمام مستطاع التأثير عليه بحكم تضامنه الكامل مع العالم ، عند معرفة سر الروابط التي تربطه به .

٢ - استناد روح خاصة وارادة مستقلة لكل كائن ، والتصور انها دائمة التدخل في الحياة اليومية .

٣ - تاليه الكائنات والاحاديث ، كالأنهر والأشجار والكهوف والجبال والبراكين والاعاصير ، وامكان تجسيد هذه الكائنات والاعلام المؤلمة في جسد الساحر او الكاهن ، وكان هذا التالية للكائنات اما طلباً ، واما خوفاً من الكوارث التي تحل بها .

٤ - عدم ادراك فكرة الموت ، وعدم التفريق بينه وبين الحياة ، وتخيل الموت على انه نوم عميق يتبع المتوفى من خلاله حياته السابقة ،

سوء وعومها او توزيعها توزيعاً متساوياً بعد قال خير .

وبالمثل فان هنود الشمال كانوا يشرون مسحوقاً على سطح سائل ، وأوصى كودكس ماليا باكى (٢٠) باستخدام الواقع كما يفعل « الفجر » اليوم . ولقد أوصت مراجع اخرى بالنظر الدقيق الى المرايا او الى سطح الماء ، او باستطلاع المقد المقودة على الجبال ، فإذا كانت العقد تتحل ذاتياً كان الطالع حسنة ، والمعروف عموماً ان علاقة العقد بتعقيد الامور أو ايقافها مبدأ شائع في السحر (والنفائس في العقد) .

ثم ان كهنة « الاينكايس » كانوا يدعكون جسم المريض بخنزير رومي حي ، ثم يقتلون الخنزير خنقاً فوق موضع الالم ، ويستنتجون من شكل احسائه مقر المرض وعلاجه ، او يتکهنون بمعالج المرض بقياس ذراع المريض اليسرى بيد الطبيب اليمنى بعد تفویصها في التبغ .

وقد استنبط (الاستيكاس) من مبدأ العلاقة المزعومة التي تربط الكون الاكبر macrocosm (وهو الكون كافة) ، بالكون الأصغر microcosm (وهو جسم الانسان) - استنبطوا جداول تحدد علاقات اجزاء الجسم بالأيام ، كما ان (الناهوا) ربطوا بين الأرض والماء والمطر والهواء والحيوانات والاحشاء ، وهذا يكاد يطابق ما كان يؤمن به الفلكليون والأطباء في القرون الوسطى .

ولكن ، بما ان التكهن يفترض اتصالاً مباشراً بين التكهن وبين عالم الارواح الخفية ، فقد كان من الطبيعي ان يبحث ذلك التكهن عن وسائل تيسر هذا الاتصال ، فاستعين بصفة خاصة بمركبات كانت تضع الساحر او الكاهن

والريض أحياناً ، منتحلاً كل تلك الشخصيات دورياً :

٦ - الاعتقاد بأن حركة رمزية أو تمثيلية تحول - بفعل قوة الساحر - الشبه إلى حقيقة ، والحركة على أنواع : فاما أن تستخدم وسيلة للتمويذة لتنقلها إلى الموز له ، وأما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلاً ، كأن يقلد الساحر حركة الماء أو يفتح ليرمز عن الهواء .. الخ . وأما أن تجري على نماذج تمثل الأمر المطلوب ، أو الروح المؤذنة ...

وقد وصلت هذه الحركات الى ذروة التعميد والفن في الرقصات التولمية التي شاعت بين الامريكيين شيئاً واسعاً ، والتي كانت تقام باستخدام الأقنعة والملابس التفكيرية والريش والألوان الزاهية والطبلول وآلات القرع والموسيقى ، والتي كانت - في أغلب الأحيان - تحاكى حركات الحيوانات المؤلهة التي كانت تتسلل اليها ، كرقصة العصان الشهورة .

٧ - الاعتقاد بإمكان نقل المرض من المريض إلى كائن آخر بتلامسهما أو بإجراء طقوس انتقال مميتة بينهما ، تبيهه بفكرة كيش الفداء .

٨ - فرض استمرار التضامن بين الشخص وكل ما امتلكه أو لمسه ، أو بين الشخص وصورته .

٩ - استنتاج « الهوية » من الشابة واستقراء المثل من القياس السطحي ، والربط بين الشيء وشبيهه وبين الشيء وأسمه ، والاعتقاد بأن أي عمل أتى بنتيجة في الماضي سوف يأتي حتماً بمثيلها في المستقبل ، أو أن استعمال حجر أحمر يغjid أمراض الدم ، أو أن زهرة صفراء تفيد الصفراء ، أو أن نباتاً يشبه عضواً يشفى أمراض ذلك العضو . وفي هذا الصدد قال ساحاچون : « يوحد في هذه

ويستيقظ منه احياناً ليزور الاحياء في صورة طيف لدى نومهم ، وشبح او رؤيا لدى يقظتهم ، يزورهم ليطالبهم بحقوقه واملاكه ، ومن هنا العمليات الرا migliة الى ارضاء الارواح بتقديم الطعام والقربانيين .

٥ - استناد قوة كامنة الى الالفاظ ، تتنطّل
من فم المتكلّم غير مبالية بشخصيّته ، سالكة
طريقاً ذاتيّة لا عودة منها ، ثم الاعتقاد بـان
الكلمة التي تصور المدلول انما هي المدلول
ذاته . وبـان اسم الشخص انما هو الشخص
نفسه ، وبالتالي بـان معرفة اسم الشخص
تسمح بامتلاكه وتنسب سلطاناً عليه . ومن
هـنا الـایمان بـقوة التعاوـيد شـريطة ان يلتزم عند
نطقها بشـكلـها وبـطـرـيقـة تـرتـيلـها دونـالـحرـافـ ،
اذ ان اقل تعديلـ فيها يـغيرـ من طـبـيعـتها
ويـفقـدـها فـاعـليـتها ، وقد يـودـي بـحـيـاةـ منـ
اخـطاـ القـاعـهاـ .

وقد كانت التماوييد على اشكال مختلفة ، منها الامر بخروج المرض ، او نهى الروح عن الحاق الاذى به ، او المحاجرة بعدم الاذعان الى الروح الضارة ، او ذكر اسم المرض ، او التهديد ، او ادعاء الحصانة ، او طلب تدخل ارواح اقوى ، او التصالح ذات الله ، او تالية المريض او اعضائه ، او سرد اساطير الالهة لمحاولة اعادة احداثها ، او ... او ذكر اسم المرض ، ايقاناً بأن معرفة الاسماء تمنع قوة التحكم في مدلولها .

وكانت طرائق استعمال التعاويند متباعدة ، فمثلاً ما كان يستخدم بمصاحبة علاج . ومنها ما كان يقلل في النهاية حضرة الدواء ليضفي على محتوياته صفات علاجية خاصة ، ومنها ما كان يرتكز على الشخص المشعوذ أو ينطوي به على الأحاجة والطلاسم ليحمل قوة التعاويند وينقلها من الساحر إلى المريض دون استخدام دواء ما . ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر – عندما كان يرتكز التعاويند – كان يتكلم بلسان الله تارة ، والساحر الآخر طوراً ،

البرازيل حوالي سنة ١٥٥٠ - الفرنسي
تييفي (٢١) ، وكثيرون غيره .

ب - الشعوذ المصحوبة بالحركات : يقول سوستيل (٢٢) في وصف مثل من علاج الصداع : « يذلك التسيتيل (أى الطبيب) رأس المريض تدليكاً شديداً وهو يقول : أنت ، أيتها التوناللى الخامسة (اصابع الطبيب) المتuelleة نحو ناحية واحدة ، وانتما أيتها الالهتان (كوانو) و (كواكشوش) اللتان تهدمان الـ (ماسوالى) ، سنجده على شاطئ الماء الالهى ، وسنطهيع به في الماء الالهى » . ثم ينفع على رأس المريض ويصب الماء على رأسه وينادى الماء قائلاً : « تعال ورد الحياة الى هذا الـ (ماسوالى) خادم هنا » . وفي حالة اخفاق هذا العلاج كان الطبيب يضع تبطاً مخلوطاً بعقار يسمى (شاللتلى) وينطق بهذه التعويذة : « أنا الكاهن سيد السحر ، أين الذى يهدم هذا الرأس المسحور ؟ أحضر ، أنت الذى ضربت تسعة مرات وسحقت تسعة مرات (أى التبغ المسحوق) ، سنشفي هذا الرأس المسحور بالدواء الاحمر (شاللتلى) ، أنى أنا دى الريح الباردة لتشفي هذا الرأس المسحور . يا أيتها الريح ، أنى أسائلك : هل أحضرت الدواء لهذا الرأس المسحور ؟ » . وكثيراً ما كانت تلك الحركات تتسم بالعنف ، وبضرب المرضى .

ج - الاعتراف الطقسى : وكانت هذه العادة شائعة عند الاينكاس والمايا والاستيكاس على السواء . ومن الطريق أن الكاهن كان مقيداً بواجب السرية ، كما أن هذا الاعتراف كان يجري لا لشفاء المترد وحسب ، وإنما

البلاد حجارة تسمى حجر الدم ، لونها أحمر منقط ب نقط تشبه نقط الدم . وتلك الحجارة تستطيع إيقاف النزف ، وقد جربتها لأنى امتلك أحداً وعند تفشي وباء سنة ١٥٧٦ سال دم الكثيرين من انوفهم .. وكان النزف يتوقف بمجرد وضع تلك الحجارة في أيدي المرضى ، ويشفي المرض الذى مات من جرائه الكثيرون ... » .

وبالمثل كان الاستيكاس يعالجون أمراض اللثة بأن يضعوا عليها أحدى اسنان واحد من الموتى . وكانت بعض القبائل تعالج أمراض الأذن بأن يوضع عليها آذن حيوان (ناندو) وذلك لقوة حاسة السمع التي يتمتع بها ذلك الحيوان ، كما كانوا يوصون بأن يأكل المريض لحم الرخم لعلاج أمراض العيون ، وذلك لقوة بصر هذا الطير ، أو بأن يتناول عصير نبات أبيض لادرار البن ... الخ .

★ ★ *

واليقاريء بعض امثلة من تلك الأنواع من العلاج التى كانت تجمع بين أكثر من مبدأ من المبادئ التى ذكرناها :

أ - امتصاص الرض بالفم : أو بوساطة البوبية مجوفة ، وتلك عملية دجل ماهرة ، كان المعالج يدعى استخراج المرض الدخيل بوساطتها على شكل دودة أو حجر أو حيوان صغير ، وكان يحضر الحجر أو الحيوان ويخفيه في ثنيا ثيابه أو في كيس خفي ، وقد أسلفنا بذكر مثل لهذه العملية تستخدم فيه لفافة من القطن ، وقد شاهد شيئاً كهذا - في

Thevet, Andre, 1558, Les singularitez de la France Antarctique, autrement nommee Amerique: et de plusieurs terres et isles decouvertes de notre temps, Paris, Chap. XLVI. (٢١)

Soustelle, J., La vie quotidienne des Aztéques à la Veille de la conquête espagnole, (٢٢) 1955, Hachette, Paris.

و - التربية لاستئصال روح المرض من مقرها بالمنخ .

ف - واذا تفشى المرض على شكل وباء ارسل الجنود المدججون بالسلاح في المدن والطرق والشوارع ، يصيرون ويقومون بحركات هجومية باسلحتهم ، لقتل عناصر المرض وطردها ، وكانوا يتبعون هذه الحرب الوهيمية حتى يلغوا نهراً او جدولاً ، فيقتسلون فيه مما يكون قد لحقهم من تلك العناصر .

ح - التهائم : وكان الاعتقاد في خواص بعض الاشياء العلاجية راسخاً عند شعوب أمريكا قاطبة . ومن تلك الاشياء : العقود المصنوعة من ااصابع الادمية المتورة ، والاكياس الادمية والأسنان والاقنعة لتخويف المغاريات ، وتماثيل الحيوانات الحارسة الطوطمية .

لم تكن تلك الطرائق عديمة الفائدة ، ذلك انها كانت تحدث في المرضى تأثيرات نفسية قوية قد تشفيفهم وقتاً قصيراً ، هذا بالإضافة الى أن الاطباء كانوا يقدمون الى مرضاهن في خلال هذه العمليات عقاقير وادوية ، سترى فيما بعد أنها كانت فعالة في كثير من الاحوال .

هذا ، وقد كانت مراولة السحر الطبي ، مع مافيه من الشعوذة والسحر ، موضوعة تحت رقابة حكومية مشددة ، تعاقب كل من الحق الذي بمرضاه . وروى ساهاجون ان الاطباء الذين اتضح تكرار اخفاق ملاجئهم يقتلون بتصويب سهم الى رقبتهم .

اما في بيرو - فكانوا يدفنون احياء ، وكان الحكم عليهم عند الاستيکاس من اختصاص

كذلك لأمراض الولاد والأقارب والرؤساء ، وكان يصاحب الاعتراف البصق في الماء (٢٦) ، وكانت تقام حفلات للاعترافات الجماعية العلنية ، يعترف الشعب في خلالها بخطاياه لابراء الـ (سبا اينكا) ، اي ملك الاينكاس . وكان يتبع الاعتراف الاستحمام مع تقديم القرابين والضحايا ، ولم يكن الاعتراف بالخطايا راماً الى التوبة وطلب الفرقان ولكنه كان أقرب الى عملية تفريغ ذهني يقصد منه التخلص من شعور الاتهام ونقل الخطيئة .

د - القرابين البشرية : لم تكن القرابين العلاجية الفردية من الوحشية بقدر ما كانت عليه القرابين الجماعية التي اعتاد تقديمها التولتك والاستيکاس ، بل كان الله المستشار - عن طريق الكاهن او الساحر - يكتفي بطلب تضحية جزئية او رمزية ، مثل اجراء قطع في الاذن ، او وخر عضو او جفن بشوك نباتي ، او اختراق اللسان بشوك الصبر ، ثم وضع الدم المسكون بعند قدمي الله او صبه على الطريق او على ارضية المعبد . وهذه الجروح كانت تصل من الخطورة الى حد بتر الاصابع . وهناك رسوم وتماثيل من الخرف تمثل هذه العمليات ، وقد نقشت او رسمت على سبيل الاستبدال اي استبدال رسم العضو مبتوراً او موخرأ ، ببتر او وخر العضو ذاته .

ه - استعمال المواد المقيمة او المنفرة لابعاد الشيطان ، كالفضلات والنباتات المفنة ، وكذلك عملية التدخين ، كما روى تيودور دي بري : « يلقى المرضى على بطونهم » ، وتلقى بعض البدور على النار ، فيتسرب الدخان الى افواهم وآنوفهم ويسرى في الجسم ، فيطرد المرض » (٢٧) .

* قلن بالعبارة الشعبية « لف من بفك » .

Theodre de Brey, Voyages en Virginie et en Floride. Trad. du Latin, Duchartre (٢٤) et van Buggenhondt, Paris, 1927.

على حفظ أجساد الموتى ودفع الفناء عنها لأسباب دينية قهرية ، وقد اختلفت الوسائل المستخدمة لهذا الغرض باختلاف الشعوب والقبائل .

ففي بيرو - اذا كان المتوفى عضواً من اعضاء القبيلة - يدفن بأكمله ، وتلقي معه ممتلكاته العادية وببعض الاطعمة وذلك لثنين عن العودة الى عالم الاحياء . وفي مدينة كويتو امتداد هنود قبيلة (كوارا) توصيل الفم الى الخارج بوساطة انبوبة جوفاء لتمكين الميت من التلفي عن طريقها .

وخصوص (المايا) الموتى من البلاط بالاحراف ، اما غيرهم ، فكانت تماماً افواههم بحبوب الدرة ، ثم يدفونون في وضع الجنين داخل الرحم ، اى بشني الركبتين تحت الدقن ، اما الملك وحده فكان يحفظ جالساً على عرش من الذهب في قصر (كوزوكو) ، ويعرض أمام عباده ورعاياه .

وفي الارجنتين كان الموتى يدفون داخل جرار كبيرة كاملي الاواني .

على أن عملية التحنيط لم تصل قط الى ما وصلت اليه من الكمال عند المصريين القدماء ، وإنما اكتفى بتغليف الاشياء ثم عرض الجثة للدخان ، او بتجفيفها بدون تحضير ما ، او بعلاجها بالثاني ، او باكسيد الزنك ، او بخلاصه النعناع او باصماug وبأشبه قلويات مختلفة .

واختلف الاستيكاس عن هؤلاء في انهم كانوا يحرقون الجثث ، ما عدا في حالات الوفاة من جراء ولادة ، او نتيجة لمرض جلدي ، او استسقاء ، او صاعقة ، او الفرق ، فتلك وفيات نسبت لمواد حاوية ، وبالتالي ، كانت تتمتع بطابع مقدس . وفيما عدا ذلك فان رماد الموتى كان يوضع في آنية خاصة يصبحه حجر كريم يمثل القلب . وقد حاكمهم في ذلك شعب ال (تاراسك) الذي كان - فوق ذلك - يدفن

مجلس الحكماء ، فلا تعجب اذن من فاعلية علاجهم او من اعجاب الفاتحين الاسпанيين بالطب المحلي ورفضهم استدعاء اطباء من اوروبا ، ذلك لأن الاطباء المحليين كانوا أمهراً منهم ، فنحن نرى ان كورتس في سنة ١٥٢٢ طلب الى ملك اسبانيا تحرير هجرة الاطباء الأوروبيين الى المكسيك لأنهم قليلو الفائدة . وكان هذا التحرير استثناء فريداً لسياسة الاداريين والقساوسة الramatic الى محو آثار حضارة البلاد الأصلية ، بل لقد وصل الاعجاب بهم الى ايفاد بعثات من اوروبا للدراسة الطلاق العلاجية المحلية ، وبصورة خاصة لمعرفة العناصر التي كانت تأتي بتلك الفوائد .

والآن بعد أن راجعنا نظريات هؤلاء الاطباء وآراءهم وطرائقهم السحرية والكهنوتية ، علينا - انصافاً لهم - أن نتفحص مدى معلوماتهم الطبية ، وقيمة علاجاتهم التجريبية .

* * *

معرفة الجسم وأعضائه :

في حدد طب هنود أمريكا نستحسن ان نعبر بـ (معرفة الجسم وأعضائه) على لفظة « التشريح » ، وذلك لما في هذه اللفظة الأخيرة من الاشارة الى مزاولة عمليات تشريح منظمة ترمي الى الكشف عن شكل الاعضاء وأوضاعها ، تلك عمليات لم يمارسها اولئك الهنود .

اما شكل الجسم الخارجي فانه - بطبيعة الحال - كان معروفاً . غير ان الامريكيين لم يرثوا عن الاشقاء الداخلية الا ما رأوه عند تفحص الجرحى والضحايا البشرية ، وعند اجراء عمليات التحنيط ، وتشريح الحيوانات ، وهنا يجدر بنا ان نصف طرق الدفن والتحنيط وصفاً مقتضباً لالقاء الضوء على هذه العادات وعلى المعلومات الطبية التي تم عليها .

لقد حرص القدماء دائمًا وفي كل الاصناف

جلود ضحاياهم البشرية لتكريم الله الملوخين (كسيبي توتوك) Xipe Totec ، وفي الشهرين الثالث والخامس ، كانت تضحي الأطفال للإله تلاروك بضيافة الاستسقاء ، وفي الشهر الخامس يتحتم أن تكون الضحية فتاة تمثل الله الإذرة التاسمة ، وفي الشهر العاشر - للاحتفال بمحصاد الغواكه - كانت تذبح الأسرى جماعة في أسلوب بشع ، يتلخص في احراقهم نصف احراق ثم في انتزاع قلوبهم وهم ما يزالون على قيد الحياة . وفي الشهر الثامن عشر كان يضحى بعدد كبير من الأسرى والاهلين المريوطين على سلام . أما قطع الرأس الطقسي فيستبقى لحلقات نادرة كالتي تقام عند توديع فصل الخريف .

هذا بالإضافة إلى حلقات أخرى مماثلة في مناسبات عده ، كتنويج ملك أو دفنه ، أو لإبعاد الأوبئة ، وقد بلغ عدد الضحايا ، في بعض هذه الحلقات ، رقم ٢٠٠٠ في السنة ، وقال البعض أنه بلغ ، في منطقة مكسيكو وحدها ٧٢٣٤٤ ، وذلك كله في خلال أربعة أيام . وقد روى الإسبان أن رائحة الدم في شوارع مكسيكو ، عند دخولهم هذه المدينة كانت لا تطاق .

ثم إن الضحية كان ينطاخ بها من قمة المعبد الهرمي ، ثم يرقص سادن الطقس رقصة دينية مرتدية جلد الضحية المسلوحة . ثم تسلق الضحايا في قدر كبير ، ليتغلب منها الكهنة ، بعد حجر القلوب للإله ، والاحشاء للشعيدين المقدسة (٢٤) . وقد استمر أكل اللحوم البشرية الطقسي ، في ديانة بعض قبائل البرازيل ، حتى القرن السادس عشر ، وعند بعض الهندوين حتى القرن الثامن عشر ، ولئن كانت هذه التقاليد الشرسية منتشرة بين كل شعوب أمريكا فهي لم تبلغ مثل هذا العنف

أقارب اليت المقربين أحياها بعد تخديرهم بالخمر .

اما إذا كانت الجثة جثة عدو أو ضحية قدمت قرباناً للإله ، فقد تتحم الاحفاظ بالرأس أو بالجمجمة على سبيل التحفة . وكان الإينكاس يستخدمون هذه الجماجم كتووساً للشرب . وقد بلغ عدد الجماجم التي وجدت في مكسيكو عند الفتح الإسباني ٩٢،٠٠٠ كما قال بعضهم ، وما تزال عادة حفظ الروؤس المنكمشة شائعة بين هنود الجيفارو Jivaro وذلك بعد تحضيرها بطرق خاصة ، أساسها ، قبل كل شيء ، إزالة عظام الجمجمة عن طريق فتحة في الرقبة مع الحفاظ على سمات الوجه بما فيها الأنف والحواجب والجفون والشعر ، وملاءج الأنسجة الرخوة بمواد تضم حفظها ، وتكرار غمس الرأس في حمامات متواتلة ، حتى يصل حجمه إلى حجم رأس المولود الجديد .

ومملية تفريغ الجسد كانت تجري أيضاً على الأحياء في ديانة (الاستيكاس) القاسية وكانت هذه العملية تعد فرضاً نحو الله الشمس وضرورة لبقاء الجنس البشري سليماً . وقد تطورت هذه العقيدة حتى آمن المايا والتولتك والاستيكاس بأن الموت ينجب الحياة في دورة أبدية لا مفر منها ، وأن تضحيه بعض الأحياء هي الوسيلة الوحيدة لضمان تجديد حياة الآخرين ، وتحقيق أبدية الكون . لاغرابة إذن في تقبل الضحايا لهذا القضاء بالرضى ، وفي إيمانها بأن هذا العذاب يجعلها جزءاً من الإله .

ومن السخرية بمكان أن حروباً (سميت حروب الأزهار !!) كانت تتشعب لمجرد الحصول على أسرى ، في أوّلات وتواريخ تعينها التقويمات الدينية . ففي الشهر الثاني من السنة المقدمة إلى ثمانية عشر شهراً ، كان الكهنة يرتدون

بشكل جائز لترعيهم . الا ان معرفتهم كانت تتوقف عند القلب . ولم يخضوا الكبد باى اهتمام في نظرياتهم الطبية . اما الفنانون فانهم لم يهتموا الا بالعقل ، غير ان تصاويرهم بعيدة عن التمثيل التشريحى الواقعى كل البعد ، ولا يريد قيمتها عن رمزها للموت وللحياة التي تجثم عنه . وهذا واضح من عدد التصاویر والنقوش التي يمثل نصفها انساناً حياً ونصفها الآخر هيكلًا عظمياً . وما يزال الصبيان المكسيكيون الى اليوم يلعبون بالعقل . ويرسمون الجمامجم على اللعب والكمك في اعيادهم ولا يغيرونها اي معنى من المعانى الحزينة .

والعادة الثانية التي ادت الى معرفة شئ من التشريح هي عادة سلخ الادميين التي عرفت الاستيکاس بشكل العضلات السطحية والأوعية .

والى هنا فانهم ميزوا بين الشرايين والآوردة ، وكانت لها اسماء مختلفة ، والغريب ان الاولى سميت (ايشيوتل ايوي) Ichiyotl Ioui اي اوعية الهواء او الروح ، وهذا يقابل اسمها باللغات الفرنزية Artery المشتقة من air ، هواء ، لامقناط الدامى ان الشرايين انما تحمل هواء ، تم انهم قالوا ان الشرايين موزعة في كل الجسم ، وانها غير ملونة ، سميكة ، توصل الدم ، تنفرج بفرارة ، نابضة ، ترتفع وتختف ، وتنتفخ وتترفع ، اما الآوردة – وكان اسمها – « اوعية الدم » – فكانت تتميز بنحافة جدرانها . وكانت لديهم لفظة تدل على اوعية بيضاء في نحافة الوزق ، وقد تكون اطلقت على اوعية اللمفاوية ، وقيل عن الاعصاب انها بيضاء كالخيوط ، اما وظائف اعضاء الحس فكانت مجهمولة ، ولم يعرف دور المخ وان بدأ انهم جعلوا له شأنه في التفكير .

★ ★ *

لدى غير الاستيکاس ، ومع ذلك فانها تتناقض كل التناقض وما هو معروف عن ترقه تلك الشعوب ورفعه فلسفتهم . حقيقة ان عقائدهم تفسرها ولكننا لا نجد فيها مبرراً .

يقى علينا وصف عملية التمديب باتتزاع القلب كما وضحت في النصوص والرسوم المديدة التي وصلت الى ايدينا ، للمعلومات التشريحية البدائية التي تنم عليها ، كانت الضحية – رجلاً كانت او امراة او طفلاً – تجرد من الثياب ، وتحدر تخديراً خفيفاً بین "مسحوق الـ (باوهتلى) على الوجه ، وتلقى مثنية الى الخلف على هيكل محدب الشكل ، ثم يجيء الكاهن مرتدياً ثوباً اسود ، ومفوكوك الشعر ، ويشق الجزء الاسفل من نصف الصدر اليسير بوساطة سكين من الزجاج البركانى الاسود ويمد الفتح حتى يشمل اعلى البطن الى اسفل القلوع فيفتح الصدر كالمانة الناضجة (حسب وصف بعض المؤرخين) ويدخل يده في عمق الجرح ويوجهها الى أعلى ليخترق الحاجب الحاجز ويمسك بالقلب والتمور فينتزعها بعنف من موضعهما . وتدل التصاویر على ان القلب كان ينتزع مع الغدة التوتية والشرايين الكبيرة التي تتفرع من الاورطا ..

ويسبب المدول الدينى للقلب ، ادخلت صورته في زينة التحف وفي الرخاف الرمزية ، كرسم لسرير يأكل قلب ، او رسم آخر للنمر الامريكي (چاجوار) وهو يلتهم طفلاً من القلوب ، او كعقد القلوب الذى يرددان به تمثال الاله (كواتليكوى) الضخم الودع في متاحف مكسيكو .

وما من شك في أن هذه العادات الوحشية عرّفت الكهنة بشكل القلب والقصبة الهوائية والأوعية الكبرى والرئتين . ومما يُروى من موائد هذه الشعوب ان سيدة انتزعت في أثناء معركة قلب عدو ورئتيه ، ونفخت في قصبه لنفخ الرئتين ، ثم رفعتهما على رؤوس الاعداء

القرون املت عليهم ملاحظات مفيدة ، ولاسيما في معرفة مآل المرض او ، كما سماه العرب ، «نقدمة المعرفة ». يقول الكودكس باديانس Codex Badianus (٢٦) : « ان الطبيب النابه يستطيع معرفة هل المريض سيرا او انه سيموت ، وذلك بمشاهدة الأنف والعينين : فإذا كانت عينا المريض محتقنتين بالدم ، فإنه سيحيانا يقينا ، أما اذا كانت شاحبتين ومفرغتين من الدم فيصبح الشك في المآل . وكانت منباثات الموت هي : الاسوداد حول العينين ، والبرودة ، وانكمash أعلى الرأس ، وذهب لمحة العينين ، ونحافة الأنف كالعصا ، وتصلب الفك ، وبرودة اللسان ، وعدم استطاعة تحريك الاسنان ، وترآكم القلاع Tartar عليهما ، كما يدل انسكاب دم قائم واطلاق الاسنان وتلون الوجه بلون رمادي ، على اقتراب الوفاة وإذا دهك صدر المريض بخشب الصنوبر ، او اذا وخر بيضة ذئب ولم يستجب المريض لهما ، فإن الوفاة لا مفر منها » .

. وكان يعبر عن هذا بالعبارة الآتية : « لقد تجاوز المريض احتمال الشفاء » ، ومن الطريف أن هذا الوصف الدقيق للامام الموت يذكرنا بوصف ابقراط لها وبما نسميه اليوم السمات الابقراطية ، غير أن أمثل هذه النبذة الجميلة نادرة .

وقد قدر رويس Roys عدد الأمراض التي عرفها (المايا) بسبعة وثلاثين واربعين (٢٧) ، ولكل مرض اسم وعلاج ، أما في بiro فقد قدر هرنانديز Hernandez الامراض الشائعة

وظائف الأعضاء :

لم تتعذر معرفة المكسيكيين ، في ميدان الدورة الدموية ، ان الدم يجري من القلب الى الشرايين على شكل حركة ضارية وأن له دورا أساسيا في الحياة . وقد عرروا التبضن ، كما أن هذه المعلومات لم تتعذر الحدس بعلاقة ما بين الأمعاء والهضم ، دون الوصول الى تفاصيل هذه العملية .

ولم يدرك المكسيكيون وظيفة الكلية الحقيقة واستندوا اليها الاشتراك في الوظائف الجنسية ، وأخضعوا عملية الانجاب لinterpretations اسطورية لم ت تعرض للقدر الجنسي بشكل واضح . أما في الولادة فقد تقدم تقدما بالغا .

علم الامراض :

لقد أسلفنا القول وناقشنا نظرية المرض العامة التي أخذت بها هذه الشعوب وهي التي تعزو الامراض الى الخطيئة وتنسبها الى العقاب والجن والأرواح ، وقد قسموها ، حسب موضعها الظاهر ، من الرأس الى الثديين كما فعل المصريون حسب بردية ادوين سميث (١٩) والاوربيون حتى عهد مورجاني (٢٥) ، او حسب عوارضها : القرح ، الصداع ، الاسهال ، في الدم ، صعوبة التنفس ، الورم ، الاستسقاء ، دون التعرض الى الاحشاء او الاعضاء المسيبة للعارض او الى الاسباب الحقيقة .

وكان فحص المريض مبسطا للغاية . ومع ذلك فإن خبرة المعالجين المتراكمة على مر

Morgagni, De sedibus et causis morborum per anatomen indagatis, 1761 (٢٥)

Emmart, E.W., The Badianus Manuscript (Codex Barberini 241), 1552, Johns Hopkins Press, Baltimore, 1940. (٢٦)

Roys, R.L., The ethno-botany of the Maya, Tulane University, Middle American Research Society, Publ. no. 2. (٢٧)

فيبدو أنه كان سائغاً وربما كان عرضاً من أمراض الحمى الصفراء التي يجوز الأخذ بقدتها في هذه البلاد.

إلا أنه ليس في استطاعة المؤرخ تحديد نسبة تفشي الدرن . ومن المعروف من البقايا البشرية ومن تصاوير عدة أن درن العظام انتشر بينهم قبل دخول الأوروبيين ، إلا أن دخول هذه العناصر الجديدة الحاملة لسلالات مكروبية غير معهودة نجم عنه ظهور المرض على شكل وبائي حاد ، حصدآلافاً من الأهلين .

اما الصرع وقد سُمِّي « المرض المطيح الشبيه بالموت » ، فهم لم ينسبوا اليه معنى سيئاً كما فعل الإغريق واللاتين ، بل كان له عندهم وضع خاص على انه أحد الأمراض المقدسة وقيل ان سببه مَسَّة الهيبة . والليك وصفة لعلاجه : « هدا علاج لكل من يقع ، ويهر ذراعيه بعنف ويسبق لعاباً . يجب سحق قرن غزال واعطاء المريض لشربه ، والا فتوكل خصيتنا ديك رومي (أو حبشي) مفرومة في الماء ، واذا تكرر الداء ، يُفصَّد وريد الاذن وينقدم شراباً للمصاب ، او يقتل كاب وتستخرج صفاراؤه لشربها » .

وقد يصح ان أهل بيرو عرفوا التناوس ، كما انهم نقشوا شلل الوجه على آنام مبودع بمتحف برلين ، وفصدوا بين المحاجبين للصداع (بيرو) او على الرأس ، ووصف سكان جبال الاند الشاهقة – في دقة بالفة – عوارض (داء الجبال) الذي ينتاب المسافرين على المرتفعات نتيجة لخفة الهواء .

وهم لم يسلموا من الاضطرابات النفسية التي نسبوها – بطبيعة الحال – الى الارواح ، وعالجوها بالعزلة التامة ، وقد وصفوا أنواعاً

بمائتين (٢٨) ، غير أن الاوصاف تقصّها الدقة ، وذلك أمر يجعل التعرف عليها من الصعوبة بمكان .

ونسب ضيق التنفس ، في بيرو ، الى سرب نفس الموتى في أجسام الاحياء او الى فساد الهواء . ووصفوا الزكام . وقال جويرا (٦) ان (المايا) ميزوا بين السعال السطحي وسببه في الحنجرة ، وبين السعال العميق الناجم عن الشعب او الرئتين ، وانهم وصفوا الربو ، والنزلات الشعبية ، والدرن الرئوي الذي سُمِّي « مرض التجفف » واطلقوا على كل من تلك الامراض اسماء خاصة .

وقد يصح ان الهند الدين اعتادوا سن حجر السيلكس في جنوب غرب الولايات المتحدة اصيروا بالسليكورز (١٨) اي تحجر الرئة الناتج عن استنشاق غبار السليكا .

وقد عرف (المايا) كيف يفرقون بين الاغماء والصرع ، وسموا الدوالى الاوردة العقدية ، واطلقوا أسماء خاصة على الذبحة الصدرية وعلى أمراض القلب المفاجئة (شيبيل Chibil وتزيميل Tzemil) . أما أمراض تصلب الشرايين فلم يدل تفحص الجثث على انتشارها انتشاراً واسعاً . ولذا فإن هبوط القلب المصحوب بالاستسقاء ، الذي نجد له اوصافاً وتصاوير ورسوماً عدّة ، كان في أكثر الأحوال ناتجاً عن المرض الطفيلي المسمى اليوم بمرض شاجاس Chagas .

على ان الامراض الاخرى لم تختلف من امراض البلاد المختلفة او عن امراض البلاد الحارة ، بما فيها الاسهال والاصابة بالطفيليات ، والدوستريا ، والحالات الشبيهة بالكوليرا ، والقيء ، والصفراء . أما قيء الدم

من الجثث جداً مرتغعة ، تتراوح بين ١٣٪ و ٤٠٪ . وقد خصصوا لأناره في الجسم تحفزاً عدداً تمثل التواء الرقبة ، أو روماتزم الكتف ، أو التقرس . ولقد قال عنها ساهاجون (١) « لقد تصور الاستيكاس أن بعض الأمراض التي تبدو نتيجة للبرد ثانية من الجبال ، أو أن هذه الجبال تستطيع شفاءها ، ولذا كان الصابون ينذرلن باقامة الحفلات وتقديم القرابين الى اقرب الجبال اليهم . وكان العلاج : الوخز بعظام الحيوانات ثم بوضع نباتات او لقح منها » .

ومن الآثار البشرية التي تفيد دراستها عالم
السلالات : سماك عظام الجمامجم من النوع
ذاته الذي ينجم عن أمراض تكسر الدم ،
كمرض كولي Cooley والانيميا الكروية
Spherocytosis ، وفي هذا ما يشير
إلى انتشار فضائل غير طبيعية من الهموجلوبين ،
وهي ظاهرة اتختلت دليلاً على طريق انحدار
السلالات البشرية وانتقالها من قارة إلى قارة .

ومن الامراض الاخرى : البواسير ، وقد نسبت الى ملامسة زهرة بياض ، والزهرى الذى يقال انه وصل الى اوروبا من هذه البلاد ، وقد أطلق الاستيكاس وسموه مرض الزهر او مرض النبلاء والسيدات ، والسيلان ، ومرض الفيل ، والاورام ، وكأنوا يميزون بين انواع كثيرة منها ، وقرح الوجه (ويرجح ان سببها نوع من اللشمانيا) ، وسرطان الثدى ، وسنثیر الى بعضها في شيء من التفصيل فيما بعد .

وقد انتشر تضخم الفدورة الدرقية وما يزال متفشياً الى اليوم في كل هذه البلاد نتيجة لنقص اليود في الملح على سفوح الجبال البعيدة عن المحيط . وقد عثر على تحف تمثله وعلى آثار بشرية لعمالة وأقراام .

من هذه الاضطرابات ، كالملاخوليا والهلوسة والتخيّلات ، والهياج .

ومن عجائب حضارتهم أن المايا كانوا يحيثون على الانتحار ويشجعونه لأسباب دينية ، لأنه - فرائهم - كان يضمن الجنة للمنتحرين ، وكانت ترعى الانتحار الهة (اكتتاب Ixtab) التي صوروها معلقة على فبة السماء بحبل ملفوف حول رقتها .

ويبدو أن المكسيكيين ادرکوا دور الحالة النفسية في تسبب العوارض الجسمية ، فلقد روی جوست ٥٨١ (٢٩) أن الخطباء كانوا يستهلون خطبهم قاتلين لستمعיהם : أنا لا أريد ان ادخل في انفسكم الملل ، او اسبب لكم الصداع او آلام المعدة ، كما ان الاستيکاس عنروا ما يصيب الاولاد من الانزعاج عند ابتعادهم عن الوالدين بعد الرواج ، فامتداوا تقديم هذه النصيحة : « أنت يا من تحتم عليه ترك والدك ووالدتك ، احرص على الا يتعلق قلبك بهما » ، كما حرصوا على ابعاد الحوامل عن كل اسباب الانزعاج النفسي .

اما المرض الذى كان منفشاً تفشياً خسيساً عادى فهو الاستسقاء ، وقد اطلق عليه فى بيرو عبارة مؤداها « لقد جف النبع » وهى عبارة تشير الى محاولة ايجاد تفسير للمرض ، وكان يعالج اما بمدرات البول التى استخدموها منها عدداً كبيراً ، او بونخر الانسجة المتورمة او تشريطها ، ودرجوا على ان يضعوا المصابين به تحت رعاية الله المطر . وبذلك يستحق من توفي من جرائه الجنة (تلا لوكان) ، شأنه شأن من مات غريقاً او مصموقاً . وقد يكون سبب انتشار الاستسقاء هو مرض شاجناس وهبوط القلب الناجع عنه .

وقد وجدت آثار الروماتزم المزمن في نسبة

على انه قد استثنى من هذا الحكم الشيوخ، وفئة من الكهنة فرض عليهم احتسامة الخمر والشتمل الديني في أثناء بعض الأعياد ، متبعوا باللون الطقسي بوصفه نوعاً من العبادة .

الأمراض السارية والأوبئة :

كان سكان القارة الأمريكية ، بصفة عامة ، يتمتعون بصحة جيدة ، وهم لم يعرفوا الأوبئة الا عندما تعرضوا للأمراض التي وردت إليهم مع الفاتحين الأوروبيين وصيدهم الأفريقيين ، وكانت تعوزهم المناعة ضدهما بسبب عدم تعرضهم لها قبلاً . ولذا كان عدد ضحايا وباء سنة ١٥٧٦ ، الذي لم تحدد طبيعته بعد ، بلغ مليونين بين المكسيكيين . وقد انخفض عدد سكان جزيرة أسبانيولا Hispaniola الذي بلغ ١٠٠٠٠٠٠ عندما رسى بها كولومبس ، الى ٢٠٠ فقط بعد مرور مائة سنة .

ولكن ليس معنى هذا ان الهنود نجوا نجاة تامة من الأوبئة قبل عهد كولومبس . فقد عانوا قبل سنة ١٠٠٠ م بقليل ، ومرة ثانية حوالي سنة ١٤٨٠ م من وباء يصعب تشخيصه الان ، وقد نشر سومولوس داردوا (٤٠) معلومات قيمة عن الأوبئة التي تفشت في المكسيك في القرن السادس عشر .

وقد نسب الاستيكاس الأوبئة الى سهام الله نجم الصباح او (سيد بيت الفجر) وقالوا انه يستطاع النبو بحدوثها في تواريخ معينة من تقويمهم التكهنى . ومع ذلك فقد فطنوا الى دور البعوض في تفشي بعضها ، وقالوا ان هوایاما كاباك Huayama Capac ثاني ملوك اسرة الاینکاس ، توفي من جراء وباء فاتك نشره بعوض اسود اطلقه رسوى سرى من لدن الاله الخالق . ولكنهم - ولا شك - فطنوا

التغذية :

في هذا الميدان تدل الآثار الفنية على انتشار البدانة ، وبصورة خاصة اكتئاز الأرداف عند النساء . وقد يكون في تمثيلها على هذا النحو رمز للهة الانجب والخصب ، كما كانت الحال عند كلشعوب البدائية .

وقد اوصى سكان جواتيمالا بتنمية الاجسام ، وكانوا ، على العكس ، يعدون النحافة بلاء خطيراً ، وينظرون اليها على أنها نتيجة لاستيطان روح دخلية في الشخص النحيف . ولذا مثلوا لها تماثيل مشيرة وفي غاية الواقعية ، توجد منها امثلة في الكثير من المتاحف . ولا غرابة في أن ينتشر المهرال والنحافة بين القراء وغذيتهم الاساسى الاذرة ، وهي بذرة تفتقر الى عناصر غذائية أساسية . غير انه لم توجد آثار للبلاجرا التي تصيب عادة آكلى الذرة ، ولا لمرض البرى بري (نقش فتامين ب ١) ولا للاستقريوط (نقش فتامين ج) ، ولئن اصيب به الفاتحون الأوروبيون أحياناً بشكل وبائي ، فإن - على العكس - كان سبب مناعة الهنود استهلاكم اطعمة تحوى كميات كبيرة من فتامين ج .

وقد حرم السكر تحريراً شديداً . ولقد كان يعاقب مرتكبه بالشنق او بالقتل ضرباً بالعصى ، او بالطرد من المدينة ، وليس أدل على النظرة المزريدة التي كان ينظر اليه بها من الخطبة التي اعتاد الملوك القاءها عند تقددهم الملك : « ان تعاطى مشروب ال (Octili) والخمر ، اساس كل السيئات ، وعلة كل الخلافات والثورات والاضطرابات في المدن والمالك .. ويدفع الى الرناوهنـك الاعراض والسفاح بالقربى والسرقة والشهادات الكاذبة والافسراء والشاجرات وارتكاب كل الجرائم » .

أيضاً حمى وادي أورويما ، أو الاتيغيا البيروفية ، وهو يتمس بانيميما ، وبطفع مميز ، وهناك أوان من الخرف رسم عليها مصابون بهذا المرض .

اما مرض ليشمانيا الجلد فإنه محصور في منطقة معينة في البرازيل وجبال الأنديز ، ويسمى أيضاً اسپونديالاEspundiala أو اوتا Uta ، ومن نتائجه تقرح أجزاء من لحم الوجه وسقوطها وتشوهات قبيحة ، الأمر الذي يسهل التعرف على صورها في أوانس الاینکاس والموشيكا .

اما الطفيليات الأخرى فإنه يصعب بطبيعة الحال العثور على أي برهان يدل عليها ، على أن بوبيضات عدده منها وجدت في بعض اللمبات ، ومع ذلك فإنه لا يمكن التأكيد بأن الانكلستوما الأمريكية Necator Americanus ، أو الفلاريا ، أو البليمارسيا ، أو الكيس الدودي ، وجدت قبل الفتح الإسباني ، هذا مع أن بعض التمايل تمثل ورم الساقين والقiliaة اللتين قد تنتجان عن الفلاريا ومع أن بعض المؤرخين ينسبون تدهور حضارة الأنكا إلى مرض شاجاس .

★ ★ *

تبقي بضعة أمراض أثارت جدلاً طويلاً ، وكان في بعض الأحيان عنيقاً ، أهمها الجذام والجدرى والزهري والملايريا والحمى الصفراء .

١ - الجذام : لقد ترجمت بعض الالفاظ

إلى فكرة العدوى ، فقد ذكر جويرا (٦ و ٧) أنهم خصصوا باباً في كتبهم لحميات معدية وصفوا عوارضها الأولى ، والرعتة التي تتبعها .. الخ . وقد استيقع سكان بيرو جو الشواطئ وحرصوا على بناء منازلهم بعيداً عن المستنقعات ، وسنوا قوانين تحتم عزل المصابين بالأمراض التي ظلت معدية .

لا أنهم نجوا من الكولييرا والرمد الحبيبي ، وقد يجوز الشك في إصابتهم بالفربزية والتهاب النكفيه والجديري والحسبة والدفتريا . وهم لم يصابوا بالطاعون إلا في القرن التاسع عشر .

ومن الأمراض التي تفشت بينهم : التيفوس ، وقد أكد فرنسيسكو Bravو Francisco Bravo أنه مرض قد ادى وسماه المرض الوحشي (٢١) . ويظن أckerknecht أن بعض الاوئلة السابقة لفتح كورتس ، والتي نسبها المؤرخون إلى الحمى الصفراء ، كانت في الحقيقة مرض التيفوس (٢٢) . وقد اتخد التيفوس صورة فتاكه في سنة ١٥١٩ ، إذ أودى بحياة حوالي ٢٠٠،٠٠٠ شخص في بيرو ، وذكر توركوبيمادا ... ر.٨٠٠،٠٠٠ ضحية في سنة ١٥٤٥ ، ولكن أشد مظاهره تجلت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

ومن الأمراض التي خصت أمريكا الجنوبيه مرضاً (الثيروجا Verruga الثرول ، والشمانيا الجلدية) . والثيروجا مرض ينبع عن عدوى نوع من الريكتسيا يسمى بـ Bartonella Baciliformis ويسـ

Bravo, F., 1570, *Opera medicinalia*, Pedro Ocharte, Mexico.

(٢١)

Ackerknecht, E.H., *History and Geography of the most ipmportant diseases*, Hafner & Cy., New York, 1965.

Williams, H.U., 1932, *The origin and antiquity of syphilis: the evidence from diseased bones*, Arch. of Pathol., 13, 779-814 & 931-983.

(٢٢)

(هنتنسون) ، تم بقايا من العظام تؤكد الاصابة به (وليامز) ، وقد بلغ اتهام هنود أمريكا بايواء هذا المرض حد التأكيد بأنهم أخذوه عن الاما وهو حيوان الحمل والنسل الذي استخدموه . ومن جهة اخرى ، يمكن الشك في كل هذه التأكيدات في ضوء العلم الحديث ، من حيث أن اغلب الاصابات التي وصفت قد تنتج عن أمراض مستوطنة اخرى كالفراميبيزيا Frambaesia (المصع) ، وعلى كل حال فإنه يجوز القول بأن هذا المرض ، ان كان قد وجد في أمريكا من قبل ، فهو عندئذ كان خفيف السطو ولم يحدث اصابات احتسائية خطيرة ، كتمدد الشرايين أو الشلل العام .

اما سبب رد هذا المرض الى عدوى من أمريكا فهو اتفاق تاريخي بين الفتح الإسباني وبين أول ظهوره سافرًا في أوروبا ، وكان هذا على وجه التحديد في برشلونة باسبانيا . فقد أكد المؤرخون ان أول من أصيب به بحارة كولومبس في جزيرة هايتي ، وقد وادم هذا التاريخ تفشي ذلك المرض على شكل عنيف قاس في مدن أوروبا جماعاً . ومنذ ذلك الحين بدأ جدال بين فئة العلماء الذين نسبوا أصل المرض الى الارمنيين ، وبصورة خاصة الى الامرنديات ، وبين الآخرين . وما يزال الجدال متسمًا حتى يومنا هذا بكل حماسة التussib الوطني ، فتنسبه كل دولة الى الاخريات . وبما ان هذا المرض ظهر ، اول مرة ، في اسبانيا ، تم نقله الى نابولي بيطاليا جنود من الإسبان رحلوا اليها لحماية الملك فرديناند الثاني ضد الفرنسيين – وأن الجنود الفرنسيين أصيبوا بالعدوى ونقلوها الى فرنسا . فقد سماه الإيطاليون والاسبان بالمرض الفرنسي وسماه الفرنسيون بمرض نابولي ، ووضع المقرب نهاية للجدل وسموه بالمرض الأفريقي .

اما في أوروبا فقد وجد مولر - كريستيانسن Moeller- Christiansen عدداً قليلاً من بقايا العظام التي تشير الى الاصابة بالزهري من

المحلية بالجذام دون برهان قاطع يؤكّد صحة هذه الترجمة . وقد ورد نص في مؤلفات ساهاجون (١) يصف بعض عوارض الجذام كتاكيل الجفون ، الا ان هذا النص – وكذلك شكل بعض تمايل الخرف – أقرب الى مرض « اوتا » منها الى الجذام . وتعتقد اغلبية اخصائيي الاوبئة ان الجذام ورد الى هذه القارة من أوروبا عند الفتح .

ب - الجنري : ومن التفق عليه ان اول وباء جنري في أمريكا هو الذي حدث في شبه جزيرة يوكاتان في سنتي ١٥١٥ و ١٥١٦ ، اي بعد وصول الإسبان باربع سنوات ، ثم انه تفشى في الجزائر الأمريكية من ١٥١٧ الى ١٥٢٠ ، وعاد واصاب مدينة مكسيكو في سنة ١٥٢٠ . ويبدو ان العدوى كان سببها عبداً افريقياً معتقاً احضره معه الإسباني نرفائيل . غير أن مارتنز دوران (١) وصف اخيراً قطعة من الخرف وجدتها في جواتيمالا ، تمثل وجهاً بشرياً مقطعاً بالدمامل ، أبدى برائيه : ان المرض كان مستوطناً قبل وصول الإسبان .

ولقد قال المؤرخون ان هذا المرض كان أقوى حليف للإسبان في فتحهم ، بسبب سرعة انتشاره وارتفاع نسبة الوفيات التي سببها والتي بلغت من ٥٠٪ الى ٩٠٪ من السكان الأصائل (١) هذا بينما لم ترث على ١٠٪ - ٤٪ عند الإسبان . ولم يصل المرض الى أمريكا الشمالية الا في سنة ١٦٣٣ ، وكان ذلك في مدينة بوسطن . وقال بعض المؤرخين ان الفاتحين في أمريكا الشمالية تعمدوا نشر المرض بداعاء الكرم وتوزيع ثياب من مات منهم بهذا المرض على المندوبين .

ج - الزهري : مما لا شك فيه ان هذا المرض وجد في أمريكا قبل الفتح . وآية ذلك تمايل من الخرف تمثل مظاهر جلدية وبعض العاهات التي تنتج عن وراثة هذا المرض ، كسقوط قنطرة الأنف ، وشكل أسنان

تبين أخصائيو تاريخ الحشرات أن عدة أنواع من البعوض استوطنت أمريكا قبل سنة ١٤٩٢ ولم يكن بينها نوماً الانوفيل الناقل للملاريا ولا الآيدس الناقل للحمى الصفراء.

ومن المؤكد أن تلك الحمى انتشرت بين أهل كوبا في سنة ١٦٢٠، وجزر انديلا في سنتي ١٦٣٩، ١٦٤٧، وبعدها، وأنها بصفة عامة كان لها تأثير بالغ في حياة نصف القارة الفرنسية.

اما وجود هذا المرض من قبل فامر جدير بالتأمل والنقاش وقد أكد جوريرا هذا (٧٤٦) معتمدًا على نصوص مايا ترجع إلى سنة ١٣٥، وعلى مخطوطات (مكستك). غير أن جل النصوص المعروفة وضعت، أو ترجمت - كما أسلفنا - بعد الفتح. ولذا فإننا، عند الرجوع إليها، لا يجوز لنا أن نجزم بصحتها جزم اليقين، كما أنها بنيت على تفسير لفظة كسيكيك Xekik ومعناها تقيّق الدم، بالحمى الصفراء، ومن الواضح أن هذه الترجمة تنقصها الدقة.

ومن جهة أخرى أبدى أوقييدو Oviedo رأياً عجيباً في نشأة هذا المرض، فقد كتب، سنة ١٥٣٥، أن الحمى الصفراء إنما تعكس في عيون الأسبان ولعهم بالذهب (٣٦، ٣٧) وهذا ما يشير إلى أن هذا المرض كان جديداً على البلاد. وأيد الكثيرون الرأي القائل بأن هذا المرض ورد من إفريقيا إلى أمريكا مع العبيد الإفريقيين، وصرح أكرنكخت Ackerknecht أن المرض الذي فسره

قبل القرن الخامس عشر (٢٤). ويرجع هذا العالم أن المرض وجد بأوروبا كما وجد بأمريكا على شكل خفيف، ولكنه التهاب عند عودة الجنود الأسبان، لتصريف الأوروبيين إلى سلالات من جرثومة هذا المرض لم تالفها انسجامهم، فظهر على شكله الوبائي المخيف.

د - الفرامبيزيا : (المصع) وهو مرض شبيه بالزهري، سببه جرثومة من فصيلة اللولبيات قريبة من تلك التي تسببه، وقد وجدت له آثار في أمريكا ترجع إلى المهد الحجري الحديث، وقد خلط الرحالة بينه وبين الزهري ولم يستطعوها التمييز بينهما.

ه - الملاريا : هناك أوصاف عدة لحميات دوريسة وقد عرّاها الأمرنديون إلى الهواء الفاسد، وكانت تعالج بقشرة خشب الكينا، ومع ذلك فإن الكثيرون يعتقدون أن مرض الملاريا بدأ ظهوره في إفريقيا حيث المقر المختار لبعوضة الانوفيلس الناقل له، وأنه ظهر في جزيرة هايتي في سنة ١٥٢٦. أما تفشيه بشكل فتاك فإنه يرجع بصفة خاصة إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

و - الحمى الصفراء : لقد تجادل المؤرخون في هذا المرض - في عدف وتصب - مثلما جادلوا في الزهري، وإن كانت حجمهم أكثر جدية وأقل عاطفية، وقد تناول الجدال أخيراً النقاش حول أول من كشف عن دور بعوضة (آيدس) في نقل المرض، هل كان بوپرتوي Beauperthuy في فنزويلا أو فنلاني Finlay في كوبا (٢٥).

(٢٤) Moeller Christensen, V., *Les origines de la syphilis et de la lépre*, 1969, Abbottempo, 1, 20—25.

(٢٥) بول غليونجي، جدال حول اسبانية كشف البعوض في نقل الأمراض، مجلة الجمعية الطبية الكوبية، ١٩٦٩، ٣، ص ٤—٨.

(٢٦) Orviedo, G.F. de, *Relacion sumaria de la historia natural de las Indias*, 1526.

(٢٧) IBID., *Historia general y natural de las Indias...*, ed. Real Academia de la Historia, Madrid, 1853.

ومن مظاهر ازدواج النظرة الى العاهات ان المسخ *Monster* كان موضوع ازدراء المكسيكيين، فقد روى ان امبراطور الاستيکاس (مكتروما الثاني) فسر ولادة طفل ذي رأسين». قبيل الفتح الاسباني ، بأنه ينذر بالسوء وكانت الحوامل تحاول درء هذه التشويهات عن اطفالهن بالاختباء في الظلام خلال كسوف القمر او الشمس لتحتمي من تأثير الاله *Xolotl* المسخ . وقد شملت هذه النظرة التسويم الى حد فرض اعدام احد الوليدين .

وفد كثُرت تصاویر التوانم السيماميں او ذئی الراسین ، ونُسبت اليهم رمزية خاصة بازدواج كل مظاهر الخلق، وهو ازدواج متجمس في : الشمس والقمر ، السماء والأرض ، الليل والنهار ، الأرض والماء، والبرد والحرارة، والرجل والمرأة ، كما ان بعض التماثيل مثل نصف منها انساناً كاملاً ومثل النصف الثاني هيكلًا ؛ ليرمز الى عودة حلقة الحياة والموت .

وفد وصل العبث بالجسم البشري الى اختلاق العاهات ، وهي عادة لعبت دوراً هاماً في حياة اغلبية الشعوب الامريكية الاجتماعية، وقد درسها *Dembo* دراسة مستفيضة (٢٨) . ومن المحتمل ان يكون الفحص من بعضها التفرقة بين بعض طبقات الشعب الممتدة بامتيازات ، كالكهنة ، او الأعيان ، او البلاء ، اما اقلها فكان الفرض منها الرينة الامتنال الى مثل جمال خاصة .

وكان اعمها تشويه الرأس منذ الطفولة لاطالته راسياً وتسويقه افقياً . والحقيقة ان هذا التشويه انما كان الفرض منه المبالغة في شكل المايا الطبيعي ، اما لتحقیق الشبه باله الاذرة، واما لتسهيل حمل الانفال المحمولة

المترجمون بالحوى الصفراء كان في الحقيقة بيفوس (٢٢) .

واخيراً فقد لقب اهل البلاد الأصليون هذا المرض بالمرض «الوطني» لزعمهم ان اصابته الاوريبيين اكثر من اصابته اياهم ، وهذا راي عجيب يصعب تفهمه ، حيث ان المند دفعوا له ضريبة فاحشة بعد الفتح .

★ ★ ★

العاهات والتشويهات الخلقية :

قد يتعجب الزائر المتوجول في متحف من متاحف الفن الامريكي ، لم عدد التحف التي تمثل اناساً مصابين بعاهات مختلفة ، منهم القرم وأغابيه من الاكوندروبلازيا ؛ والاحذاب سواد اكانت حادة كانت تتوج عن درن العظام ، أم مستديرة كالتي يسبها لين العظام ؟ والشفة الارنبية ؟ وصغر الفك الأسفل ؟ والنواة الرقبة ؟ والقدم الحنفاء ؟ والمهق *Albinism* . والعجب من هذا ان تلك التحف مصنوعة في دقة ومهارة ومنحوتة من مواد نفيسة كاليشم *Jade* الاخضر . ولا عجب ، فان بعض هذه التقوش رمررت الى شخصيات مقدسة ؛ فلم ينظر الى هذه العاهات والتشويهات كسائر الامراض ؛ بل على انها عقاب لخطيئة او فعل ارواح شريرة او تجسّد عفاريت ، وعلى العكس ، ظن انها لافتات سماوية تنبئ بموهاب خاصة وبقوى نفوق الطبيعة ، يجدر بالناس احترامها ، وتشير الى اختيار الالهة لحاملها الكهنة او الاطباء .

ولذلك فان التفرقة بين التصويرات الرمزية وبين المحة الحقيقة او التشويه الخلقي باللغة الصعوبة .

الجراحة :

وكانت الجراحة أولى وسائل العلاج التي تحررت من السحر والدين في كل الحضارات، وقد اعتمدت على التجربة لسبب واضح هو أن ممارس صناعة اليد (كما سمي الأغريق والعرب الجراحة) كان يعالج أمراضها ظاهرة، لها خطورة مباشرة، ولم يسعه عند ناولها إلا تطبيق ما جربه ووجده ناجحاً، وذلك لخطورة الانصراف إلى ثاملات تعقلية محضة أراء نزيف أو عدوى - غير أن امكاناتها خللت محدودة وذلك لقلة المعرف التshireحية ولبدائية الوسائل الفنية والافتقار إلى طرق كفيلة بايقاف النزف العميق أو الألم أو المدوى . ولذلك قد اقتصر الجراحون في كل الحضارات البدائية على إجراء العمليات السطحية البسيطة كاستخراج الأجسام الغريبة وعلاج الجروح غير النافذة ، ورد الخلوع والكسور ، وفتح التجمعات القبجية البسيطة ، واستئصال الأورام الصغيرة السطحية . وقد داعبت بعض الشعوب جراحة الجمجمة منذ العصر الحجري القديم فمارست التربينة . كما اجرت عمليات بتر بسيطة وعملية الختان . وكان أشهر تلك الشعوب الاستيكانس ، والبروفيون قبل الانكماش .

وشمل علاج الجروح الخبطة بشعر آدمي أو حيواني أو بخيط نباتي تحمله شوكة من الصبر أو إبرة مصنوعة من عظم سمك مثقوب . وابتكرت طرق طريقة أخرى استخدمت أيضاً في الهند الشرقية (سوشووتا) وما تزال شائعة بين هنود وادي الأمازون في جبال الأندي وهي وضع نعل كبير الجسم على العرج بحثه

على الظهر بوساطة رباط مشدود على الجبهة، وقد كتب فلورنو Flornoy في هذا الصدد : « لقد كان الرأس موضوع اهتمام خاص ، وكانوا يضعون رأس الطفل بين لوحتين لينمو نحو السماء ويتحلى شكل الساج الثالث ، وليكون أعلى منه عند سائر الناس ، فقد كان هذا ، في ذهن الهندوس ، علامه التحرر ، وكانوا بذلك يتخيلون أنهم يتحكمون في نظام الطبيعة ويفرونها بأيديهم (٤٩) ». وقد كشف في الأرجنتين عن جمجمة مركبة عليها جهاز مكون من لوحة على الجبهة وأخرى على الرقبة ، مربوطتين برباط يشد تدريجياً ، يركب على رؤوس المولودين الجدد لمدة تتراوح بين أربعة أيام أو خمسة .

ومن الأمثلة الزخرفية الأخرى ، تشويه الأسنان وسن اطرافها على شكل المشار ، وترصيع سطوحها بالذهب أو بالحجارة كالفيروز أو الصدف (٤٠) ، ولقب فص الأذن لتركيب أقراط ثقيلة لا تلبيث ان توسيع وتطيل الأذن الخارجية ، أو ثقب الأنف أو اللسان للفرض نفسه ، أو ثقب الشفة السفلية ووضع زينة فيها لتدل على بلوغ سن المراهقة . وكانت رؤوس تماثيل المايا تحمل أنفًا اصطنامية تحاكي منقار الكويتزال Quetzal وهو الطير المقدس .

الآن أقرب تشويه عدوه اشاره الى سمو المنسولة هو الحوّل ، وقد ذكر دللاندا Diego de Landa أن الامهات كان يحدن الحوّل بتعليق كرة من الصمغ مربوطة بشعر الأطفال قبال أعينهم (٤١) .

★ ★ ★

Flornoy, B., *L'aventure Inca*, Dumont, Paris, 1955...

(٤٩)

Fastlicht, S., 1968, *Las mutilaciones dentarias precortesianas en Teotihuacan y su relacion con otras culturas*, *Gaceta Medica de Mexico*, 98, no 3, p. 351.

(٤٠)

Landa, Diego de, *Relacion de las cosas de Yucatan*, 1566, ed. Pedro Robredo Mexico, 1938.

(٤١)

على الجدعة أو على ما بقى من العضو ، ونجد بعض هؤلاء المبتورين مزودين بعضاً أو بأطراف صناعية عشر على طالفة منها في المقاير . وقد وجدت أيضاً في آناء من الفخار أصابع مبتورة وسكين من الرجال البركانى استخدم لبترها ، ولا شك في أن هذه الأصابع كان لها في أمريكا - كما في حضارات قديمة أخرى - معنى سحرى بالغ الأهمية . وكان للبتر معان كثيرة : فان اقدام الأسرى كانت تبتر لمنعهم من الهروب ، وكان البتر الأصابع طقساً من طقوس الموتى عند هنود الاوروجواي (الشاروا) وفي الهند وكاليفورنيا ،

وكانت التربينة بلا شك أغرب العمليات الجراحية ، وتلك عملية اجرتها انسان ما قبل التاريخ في كل أنحاء العالم : فرنسا ، إسبانيا ، إيطاليا ، النمسا ، أسكندنافيا ، جزر بولينيزيا ، سيبيريا ، إفريقيا الشمالية ، بلاد ما بين النهرين ، مصر ، ومن المعروف الآن أن هذه العمليات شملت أمراء مختلفين كل اختلاف ، فان بعضها كان يجري بعد الوفاة لاستخراج قطعة من العظم تستعمل على شكل تميمة أو طلسم . وفي هذه الحال يبدو الجرح متساوياً ، مستديراً ، وخالياً من أي علامات الشفاء . وكان البعض الآخر يجري على الاحياء ، وذلك ما يتبيّن من وجود تفاعلات حيوية على شفة الجرح ، وقد شاعت تلك الجراحة ، بصفة خاصة ، في بيرو قبل حضارة الاینكاوس بزمن طوبيل ، اي في العهد المسمى عهد الكهوف . وقد وجد عدد كبير من تلك الجماجم مجتمعاً في مقبرة في شبه جزيرة باراكاس ، دون الوصول إلى أي تفسير لهذا التجميع .

على انا اذا تأملنا في الحالات التي اجريت لها التربينة وجدنا ان اقدمها كان يرجع الى اعتبارات سحرية ، اي السماح للروح الدخيلة بالخروج ، ثم تحولت فيما بعد الى عملية يقصد منها اما استئصال شظايا العظام

نهمه على القبض على شفتى الجرح بفكيه ، وعندئذ يتر راسه وترك فكيه وهم ما سكتان شفتى الجرح * . وكانت الاجسام الغريبة تستخرج بملقط من البرونز ،

اما الجروح فكانت تفصل بالماء او البول او بعصارات نباتية تضخ بالفم او بوساطة مضخات يدوية . ومن انواع العلاج الموضعية : المواد الدهنية وعسل النحل وخلاصات نباتية مخلوطة بالشمع او بصفار البيض ، وكانت التقنيات المقلقة تفتح بالمضبع ، او تنتص بالفم ، او يوضع عليها التبغ وأدھنة مختلفة . وكانت جروح الوجه تعالج في عناية خاصة . قال ساهاجون : « ان جروح الوجه يجب حياكتها بشعر من الرأس ، لم وضع عسل مخلوط باللح على الفرز وعلى الجرح ، اما اذا لم ينجح العلاج وسقط جزء من لحم الوجه ، فعلى الجراح ان يكتسيه برقة تحاكي شكله » .

وكانت الحروق تترك على علالتها بعد تقطيعها بمرهم مكون من العسل وصفار البيض وعصارات نباتات معينة .

اما الخلع وكان علاجه التثبيت والتدعيل الخفيف والأدھنة المسکنة . **اما الكسور** فكانت ترد بالشد وبالحركات البدوية وبليخ من النعناع واليافاف الاندراء *ephedra* ، ثم بتثبيت العضو المصاب بوساطة اربطة سميكه مشربة بصمغ سريع التجفف ، او بوساطة جبائر من الخشب او من ورق الدرة الشبع بدھان لاصق . ويجوز الشك في نجاح علاج وصفه ساهاجون للحالات التي لا يتم فيها الشفاء ، ومفادها ترقيع العظم بوضع قطعة من الخشب الصمفي في تجويف النخاع .

ونجد البتر مصورة تصويراً واقعياً على كثير من اواني الخزف التي روعى فيها رسم الفرز

* وصف هذه الطريقة في الاندلس الطبيب العربي الفقيه أبو القاسم الزهراوى في القرن العادى عشر الميلادى .

او التخلص من العفاريت ، او تقديم الدم قرباناً ، وكانت تجرى في مواسم يعينها التقويم ، وكان الدم اما ينتصب بوساطة قرعة مفرغة توضع بين الجرح والضم ، اواما يجتذب بالحجامات او بدهن الجلد بالغلغل الأحمر .

اما الفتق فكان يرتبط ولا يجري له جراحة . وكانت البرحون التي يسببها عض الشعابين تستقصى ، وكان السحرة يدعون شق البطن واستخراج الشعابين والضفادع وأشياء اخرى منفردة من تجويفه .

★★★

الصحة العامة :

والى جانب البدائية في الطب وفي العلوم المتصلة به ، ومن الطرائق الغريبة العلاجية غير المنطقية التي استخدمها الامريكيون ، وجد الاوربيون ما اثار دهشتهم واعجابهم في مدن المكسيك وفي تحطيمها ، ولا سيما اذا اخذ في الاعتبار تركيز السكان المحموظ فيها ، فقد روى أن عدد سكان كل من (شان شان) و (كوزوكو) ببر وبلغ ١٠٠،٠٠٠،٠٠ ، وأن كلًا من (شيشن اثرا) و (تيكال) و (كوبان) كانت تأوي ٢٠،٠٠٠ نسمة ، وهو عدد يفوق عدد سكان باريس في ذلك الوقت . وقدر سكان (توشتنلان) بتسعين الفا وقيل خسمائة الف ، وقد كتب عنها فاتحها كورتس : « ان الشوارع الرئيسية واسعة ومستقيمة ، نصفها ارضي ونصفها الثاني حفرت فيه قنوات لزوارق المند » وكتب (دى لاندا) ان الهند يقطنون مدنًا منظمة تنظيمًا كاملاً ، نظيفة ، مجردة من الأعشاب ، ومزدادة باشجار جميلة .

وقد ابني اهل ببر ومنازل من الحجر ، واستخدم الاستيكاس (القرميد) ، وافسح اغنيائهم باحات وسط المنازل للتهوية والترفيه ، وبين المايا منازل من (القصرمل) وزودوها بأسقف منحنية مفطاة بالقش ، وقد اختصت مدينة توشتنلان (مكسيكو حالياً)

المكسورة ، او علاج اورام المخ او تقيحات جيوب الانف الجبهية او اصابة عظام الجمجمة بالالتهابات التقيحية او بمرض (الاوتا) .

وكانت وسيلة التربية في أول عهد الانسان بها ، الحك باللة من البرونز ، تم ابتكرت وسيلة اخرى هي اجراء تقوب متتالية على خط مستدير ، تم برفع الدائرة عند انضمام حواف التقوب . وقد صوّت بعض الآثار الفنية هذه العملية ، ونجح جراح معاصر من ببر واسمه (جرانا) في اجرائها بالآلات ذاتها التي استعملها اجداده . ونفصل هذه العملية فيما يلى : حلقة الرأس قبل العملية يومين ، وضع اوراق الكوکا المدهوكة لتحقيق تخدير موضعي ، التخدير بالخمر ، ربطة الرأس على مستوى الجبهة برباط من صوف اللاما ، شق الجلد بمضيع من الذهب او الفضة او النحاس على شكل مرساة مقلوبة ، وخر طبقة عظم الجمجمة الخارجية بمثقب من البرونز او الزجاج البركاني الاسود ، ثم اختراف طبقة العظم الداخلية بعنابة فاقفة لتجنب اختراف الجيوب الوريدية او جرح الام الجافية ، والتضميد بالقماش المشبع باملاح الرئيق او بسلفات النحاس . وكانت الفتحة تسد احياناً بدائرة من المعدن ، وقد حازت هذه العملية نجاحاً يثير الاعجاب فلقد وجدت آثار تدل على شفاء الجرح في ٦٢٪ من الحالات . ولكن مما لا شك فيه ان الترف والمدوى كانا يسببان وفيات كثيرة .

والختان : ما يزال اجراؤه مشكوكاً فيه وان بدلت بعض التمثاليل مختنة ، اما مدلول هذه العملية فإنه كان اما زخرفياً لتحسين شكل الانسان او كان اشاره الى تقديم دم نفيس الى الالهة .

/

ومن الاجراءات العلاجية الاخري الشبيهة بالجراحة ، لنذكر الفصد والشق بالمضيع او بتصويب الاسهم ، والحجامات ، وقد كانت لها معان سحرية او دينية ، منها التشفع للالله ،

وشرب الماء البارد ، كعادة السونا Sauna الفينلندية .

وقد عنوا عنابة خاصة بالرياضة البدنية لأمداد نشأة من الشباب لافقة بالأعمال الشاقة وبالمشاركة في الحروب .

ولقد فطن الهنود - منذ أول تاريخهم إلى الثروة النباتية من العقاقير الموجودة في بلادهم ، (٤٢) ولأنسوان النباتات التي تؤثر تأثيرات عنيفة على الجهاز العصبي . ومن تلك النباتات الكوكا التي يستخرج منها اليوم تشبه القلوى الكوكايين والتي كان البروفيون يمضغون اليافها بشيء من الجير أو الرماد ، وقد لتزيل التعب وتبه اعصابهم وعضلاتهم ، وقد استعملها الكهنة للاستعانة بها على استحداث النشوء الدينية التي اتصفت بها عباداتهم ، غير أن السلطات ادركت مضار الأدمان على استخدام هذا النبات ، فوضعت حراساً على المزارع وحددت لكل عامل ورقة واحدة يومياً .

اما في المكسيك فقد شاع استعمال التبغ ، وكان المخدر المفضل هو (البيوتل) وهو نوع من الصبر له - بالإضافة إلى خواص الكوكا - خاصة أحداث الهلوسة والتخيّلات الوهمية . وقد شاع استعماله لدى الكهنة والسحرة ، الذين استعملوا كذلك أنواعاً من الفطريات ذات خواص مماثلة . وقد ادت امدادات تفحص هذه النباتات أخيراً إلى معرفة خواص هذه الفطريات واستعمالها طبياً وإلى نوع جديد من الأدمان .

ومن النباتات الأخرى المفيدة التي استعملوها إلى جانب خربلات كثيرة ، طائفية كبيرة ورثتها عنهم وما زالت تستعملها إلى اليوم : منها بلسم بирه ، وبلسما طولو ، والكافكاو ،

بمراحيض عامة ، حيث كانت تجمع الفضلات لتنستخدم في الزراعة . وافتنت السلطات عنابة خاصة بـ المياه النقية . وكانت تلك المياه تجلب إلى مدينة (كوزكو) بيرو من عيون في الجبال المجاورة ، عن طريق وصلات جوفية حفرت بأمر من (باشا كوكو المصلح ، ١٤٣٨ - ١٤٧١) ، وفي الوقت نفسه أمر (مكتروم الأول ١٤٦٩ - ١٤٤٠) بتشييد قنوات معلقة aqueducts لتوسيع المياه النقية من غابات (شابلتيك) إلى (توشتتلان) ، وبناتها من طبقتين تستعملان على التتابع للتمكن من التنظيف ، وتصب تلك القنوات في خزان في وسط المدينة يغذي شبكة من الوصلات الشانية ، وقال (برنان دياز دل كاستلو) عندما شاهد هذه العجائب : « إن ما يدعو إلى التأمل والتفحص يفوق قدرتى ، فاني رأيت إنجازات لم يسمع بمثلها قط ، ولم تُرَ البُشَّةَ من قبل ، ولا سبيل لتخيلها » (٤٣) .

لم تختلف العناية بنظافة الفرد عنها بالنظافة العامة ، فقد كان (مكتروم) يقتصر مرتبين يومياً ، وبصورة خاصة كان يوازن على خصيل يديه قبل الأكل وبعدة ، ويبلغ الأمر بالاستيكاس أن عدوا عدم الافتisan ذنبًا وحقشقاً ، واستعملوا - بدلاً عن الصابون الذي لم يعرفوا صنعه - نوعاً من الشمار ، وجذور (السابوناريا أمريكانا) . وكشف الباحثون عن حمامات فردية من الحجر في قصور (كوزكو) ومنازل أعيانها . وكان يحكم على أهل بيرو - إذا اديروا بالقدارة - بالضرب بالعصى ويشربن ماء حماماتهم ، ثم ان الاستحمام في الجداول والمياه الساخنة كان شائعاً بينهم . ومن عاداتهم الصحية التردد على حمامات البخار أو الهواء الساخن بفترة النظافة أو الشفاء من بعض الأمراض . ويلي حمام البخار الفوض في النهر ، أو في الثلوج ،

مجتمعات ما قبل كولومبوس ، ذلك أما لأن الساحر كان يهيمن على قبيلته بحكم اتصاله الزعوم بالقوى التي يتحكم فيها ، أو لأن الطبيب كان ينظر إليه على أنه عضو مفيد في المجتمع يمتاز بالعلم واللباقة والحسد النساني .

اما التعليم الطبي ، بمعناه الحديث ، فلم يكن معروفاً ، وقد روت أسطيرهم أن طب (تولتك) نظمه مجمع من الحكماء الأربعين الذين اتسوا التقويم التكهنى وهم أكسوموكو Oxomoco ، وسيكتونال Cipactonal ، Tlaltetecum وخشيكاواكا Tlaltecum ، وخشيكاواكا Xochicanaca .

ولا ندرى هل كانت مزاولة الطب في بيرو مقصورة على فئة من الناس . هذا وإن كان (روكا) — سادس ملوك الإنكاس — سجل أمره بتعليم العلوم للبلاد فقط لثلاثة يتکابر أهل الشعب .

اما في بلاد (المايا) فإن الطبيب كان ضحى ثلة الكهنة . وكانت المراسيم بالتصريح بمزاولة المهنة تقام في حفل ديني سمّي (بوكمام) ، وينهدى في خلاله صندوق يحوى عقاقير وحجارة وتماثيل صغيرة للآلهة وأشياء أخرى ذات طابع سحرى .

وعند الإنكاس انتهى ممثلاً أعلى فئة من فئات الأطباء إلى الطبقة الحاكمة وتخرجو في مركز علمي في مدينة كوزكو Cuzco ، حيث كان يدرس أيضاً فيربط العقد على الحال ، وهو في حل عندهم محل الكتابة عندنا ..

وقد وضعت لممارسة المهنة قواعد وقوانين لا سيما في بيرو التي امتازت بنظام اداري محكم . وكانت احكام صارمة توقع على الأطباء الجهلة أو على مزاولي السحر (الاسود) :

والقرفة ، والخولنجان ، والكوبال ، والكورار ، وطائفة من قبيلة الغرييون ، والفويفم Quaiac الذى عدوه نباتاً مقدساً يعالج به الزهرى ، وعرق الذهب الذى استخرجت منه مادة الامتين ، والجلبة ، والعشبة ، والتبغ ، ورعن الحمام ، والمطاط الذى استخدموه في صناعة اللصق ، ونبات اسمه كارياتروش له مزايا زيت الشولموجرا Chaulmoogra والكينا .

وللكينا تاريخ اشبه بالقصة البوليسية . رزوي أن بعض هنود بيرو لاحظوا أن ماء بعض المستنقعات اكتسب ، بعد زلزال هز أرضهم ، مرارة جديدة خاصة تشفى الحميات ، وادركتوا أن هذا الماء إنما اكتسب هذه الفائدة من خشب شجر سقط فيه بعد الزلزال ، واحتظروا قرونأً بهذا السر ، حتى سنة ١٦٣٠ ، أي ١٠٠ سنة بعد حدوث الفتح ، وحدث أن أصيب محافظ منطقة لوتسا الإسباني : واسمه دون خوان لوبيز دي كانيزارس ، بحمى راجعة ، فشفاه أحد الوطنيين بهذا الدواء ، رداً لجميل كان يدينه له به . لم أصيبيت في سنة ١٦٣٩ كونتس (دي ستشون) — قرية نالب ملك بيرو — بحمى شفيف منها بفضل هذا العقار ، و توفاه الله في طريق عودتها إلى إسبانيا ، إلا أنها ، قبيل مغادرتها بيرو ، أهدت مقداراً من القشرة المجيبة إلى يسوعيين الدين اسرعوا غافلوا الامر إلى رؤسائهم برومما ، فبادرت جمعية يسوعيين بتوزيع الدواء الجديد في أوروبا وربحت من احتكار هذه التجارة أموالاً طائلة ، واطلق على الدواء (كنكينا) وهي لفظة منحدرة من اسم كونتس (دي ستشون) .

★ ★ ★

المهنة الطبية :

بلغ الأطباء والمتطببون منزلة رفيعة في

من القلب ، فشيم ، يقتل بعقاربيه ، ويزيد من شدة المرض ، ويختاطر بحياة غيره ، ويدعى العفة والرشد ، ويلقى التعاوين ، ويقرأ الحظ ، ويخدع السيدات ويشعوذهن » .

ولا ندرى هل أنشأ الامريكيون هيئة اطباء من بين موظفي الدولة ، ولكن ذلك محتمل .
فقد عيّن ملوك (ميشواكان) هيئة منهم لعلاجهم الشخصى ، كان يتّحتم على احدهم اصطحابه في العالم الآخر بعد وفاته (آه !!)
والى ذلك فان الجيوش كانت تصحبها فتة من الاطباء لا تقل تنظيماً وفعالية عن الفئات المائلة في أوروبا .

وكان الجرحى ينقلون من ميادين القتال في وسط المعركة ، وذلك لفرضيين : محاولة استعادة العناصر المحاربة ، وحرمان العدو من اقتناص اسرى تقدم قرايبين للأهمة لاسترضالها ، وقد شهد دياز دل كستليو بأنه لم يزن ميتا واحداً في خلال معركة شاهدها (٤٤) وكذلك روى متولينا Motolina أن الجراحين كانوا يضمدون الجرحى وسط القتال (٤٥) .

ومن ثبات الاطباء التي ذكرتها النصوص : الطبيب العام ، الكاهن الساحر ، الطبيب العلماني ، الطبيب المتنقل ، طبيب البلاط والنبلاء ، طالب الطب .

ومن المختصين : الباطنى ، والجراح ، والمجبر والفاقد أو المزین ، وطبيب العيون ، وطبيب الاسنان وطبيب الاذان .

ومن مساعدى الطبيب : المولدة، والمشتاب ، والبيطار .

ومن الصعب ادراك تخصص كل فئة ، هل

كانت وجوههم تخبح بمسحوق الأذرة او برمد شعر ضحايا أعمالهم ، أما الذين يقدمون السم فكانوا يقتلون ضرباً او يرجمون مع أولادهم ، او ينطلقى بينهم وبين الحيوانات المفترسة او الشعابين في كهف من كهوف مدينة كوزوكو .

وكان الاطباء في المكسيك ينجزون على التقدم لامتحانات قبل منحهم الترخيص بمزاولة مهنتهم وقد سُمِح للسيدات بمزاولة المهنة في غير اوقات حيضهن ، وربما وجدنا في تلخیص ساهاجون (١) للفضائل التي يجب على الطبيب ان يرددان بها وصفاً لما عدوه الطبيب المثالى قال : « يجب على الطبيب ان يكون نموذجاً ، كالمنارة او المسراة اللامعة ، عالماً مقتنياً للكتب ، محافظاً على التقاليد ، مدركاً لسلوكياته ، وجديراً بالقيادة . ان العالم هو المرشد . واستاذ العلم الصحيح جدير بالثقة ، معتمد ، يرشد الى الصواب ، يعيد النظام المفقود ، خير بعالَم الموتى ، وقرر ، يعيد عن اي عتاب ، متفهم ، مطمئن ، باهث للسکينة ، مستجيب الى ما يطلب اليه ، معيد للأمل ، ومشارك في علمه . أما عالم السوء فهو طبيب محدود الافق ، مكابر ، يدعى الحكمـة وبيتفى الثقة وهو ساحر مشعوذ ، خداع ، لص عام ، هادم ، ضار ، ومرشد الى الخطأ ، يقتل الناس ويفسدهم . ان الطبيب (تسيتل) يشفى الناس ويعيد اليهم الصحة ، له دراية بالتشخيص وخبرة في خواص الاشتباب والحجارة والأشجار والجذور ، وهو معتدل في سلوكه ويشفى عن طريق رد العظام وتركيب الجبائر ، وتلبيس الامماء ، واعطاء المقيّمات ، والفصـد ، وخياطة الجروح ، وشق الفتحات . أما الطبيب الرديء فإنه كذاب ، حـرـقـنـى مجرد

Motolina, Fray T., Memoriales; Historia de los Indios de la Nueva Espana, 1596 (٤٣)
ed. Mexico, 1903.

الأسري وأحرقوهم أحياء قرباناً لا لهم ،
تعفوا عن السكر ، واحتسوا الخمر
والملوّسات في نشوائهم الدينية ، أشادوا بمثل
عليها يقتدى بها الأطباء ، وسلخوا الفتيات حية
وأنخذ سادنو دياتهم جلودها ثياباً ، أدانوا
القدارة ، وأكلوا اللحوم البشرية في طقوسهم
الفائرة ، وضعوا تقاويم دقيقة وامتازوا في
الحساب الفلكي ، ولم يغطّوا إلى فوائد المجلة
في النقل ، ابتنوا مدنًا حازت مرافقها اعجاب
أوروبا ، وجهلو العرش وأجدبوا حقولهم
برأفهم البدائية .

وقد احتار الفاتحون الأوروبيون أزاء هذه
التناقضات ، واستنكروا الدبائح البشرية
والتمثيل الديني والملوسة التعبدية واللواط
والشذوذ الجنسي وال العلاقات الجنسية بين
الأقارب ، إلى حد الشك في بشرية هذه
الشعوب . لأنهم لم يحاولوا تفهم أسمها
المقيدية ، أو تصور الصورة الخلفية التي
برزت فيها هذه العادات الفريدة عليهم ، أو
خوض الأعماق النفسية التي ازدهرت في
تربيتها ، أو بحث المفاهيم الاجتماعية والأوضاع
التي قامت عليها .

وقد حاولوا استبدال مثلهم الأوروبي
بائلن القديمة ولم ينجحوا تماماً في هذا
الاستبدال ، وتركوا فراغاً روحانياً لم
يستطيعوا ملأه ، وهذا الفراغ ما زال يعاني
منه سكان هذه البلاد . وقد بلغ الأمر باحد
الكتاب المتأذين الذين عرضوا لهذه المسائل
أن ألف كتاباً اسماء (ذهن الإنسان قبل
كولومبس The Pre-Columbian mind) (٤٤)
حاول فيه تفسير هذه الظواهر تفسيراً علمياً ،

كانت تلك التسميات مجرد وصف ورد على
قلم الكاتب ، أو كانت تشير إلى تخصص
دقيق .

★ ★ *

وبعد ، فلقد حاولنا في هذا المقال القاء
نظرة على طب ، استقل في تطوره عن طب
العالم القديم ، وإن كنا شاهرين بمجزنا عن
إيقائه حقه ، غير أننا نعد أنفسنا ناجحين إن
كنا دفعنا بعض قرائنا إلى التأمل في تأثير
حضارة شعب على طبه ووسائل علاجه ، ذلك
أنه قدر لكل شعب ما يليق به من الطب ، وما
هو جدير به ، كما أن لكل شعب آلته اختارها
لنفسه لتجسيم مثله فيها .

نشأ طب الامريكيين في جو من السحر
والتدليل ، واسمي دياته بقصوة نادرة المشيل .
وإذا كان الجانب التجاري منه قد ترعرع على
مر القرون وأثار امتعاب الفاتحين الأوروبيين ،
وعرّفتنا بعقاقير فعالة ، مانزال ندين له بها ،
فإن الجانب الآخر ظل معمولاً به إلى جانبها ،
كما نرى اليوم قوافل الجمال إلى جانب
الطائرات النفاثة ، والراكب الشراعية إلى
جانب الباخر التووية ، وظل هذا الجانب
متحجرًا ، بل نقل تجمده إلى قرينه التجاري ،
شأن الاعتبارات الدينية الزائلة التي تدعى
احتياط الحقائق الأزائية ، والتي يختص في
ظللها كهنة متعصبون استثمروها لصالحهم .

لقد رجم هنود أمريكا الزانبيين ، ولكنهم لم
يخرجوا عن الزنا وعن ألوان الانحراف الجنسي
من خلال طقوسهم الدينية ، عنوا بالأطفال
والمرضى عناء فائقة ولكنهم شقوا صدور

الستين ، ام نتيجة لتطور فكري وعقيدي اختصوا به في اثناء هذه الحقبة الطويلة من تاريخهم ، فانها ابداً تقوم دليلاً على ظاهرة من ظواهر ذهن الانسان المحرر، وهي الانفصام الذي كثيراً ما يقابلها فيه ، كان الذهن مقسم الى (خانات) تفصل بينها حواجز لا سبيل الى عبورها .

وذهب الى أن الشراسة غير البشرية في عوائلهم ترجع الى عدم اعتقادهم في جحيم نعذب فيه أرواح المخطئين في العالم الآخر .

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة التي لانستسيفها وإن كانت هندهم طبيعية ومقبولة، سواء كانت وليدة تكوين بيولوجي خاص نشأ في خلال عزلة عن بقية البشر دامت آلافاً من

